روايات الهلال



أحمد أنيس .. ظلى الضائع

محمد جبريل

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عزت بدوى

رئيس التحرير
محمد الشافعى

روايات الهلال

مدير التحرير
هالة زكى

المستشار الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

تصميم: محمود الشيخ

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n.
فاكس: FAX: 3625469

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - اليمن ٥٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولار.

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩
العدد ٧٧٩- ديسمبر ٢٠١٣م - صفر ١٤٣٥هـ

رقم الإيداع : 23043/٢٠١٣م

الترقيم الدولى :I . S . B . N 978-977-07-1613-7 X

أحمد أنيس .. ظلى الضائع

رواية: محمد جبريل

دار الهلال

٢٠١٣

أحمد انيس.. ظلى الضائع

رواية : محمد جبريل

رقم الايداع:
الترقيم الدولى:

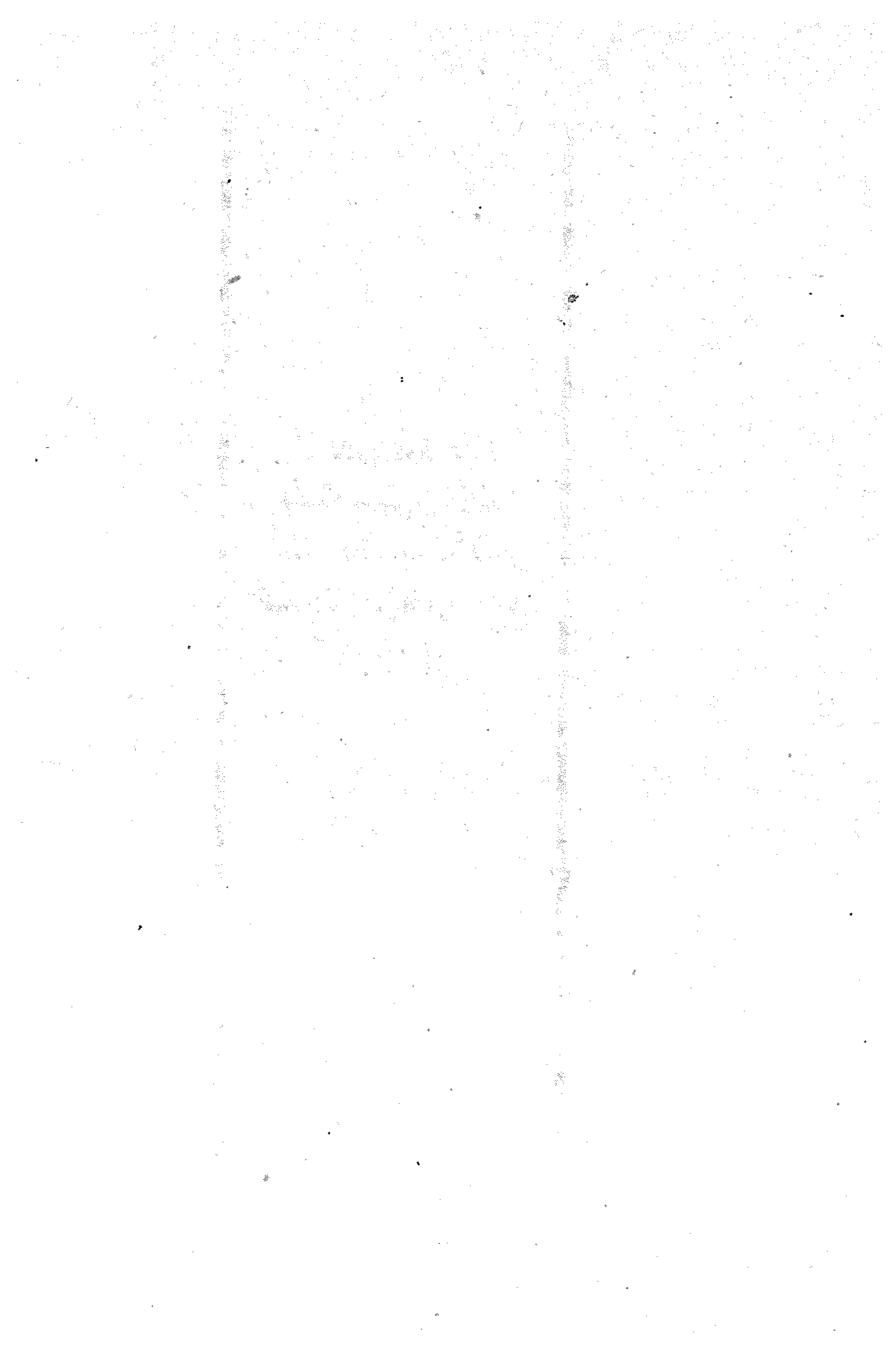
أحمد انيس..

ظلى الضائع

رواية محمد جبريل



أنا وحدى أعرف ما كان
باستطاعتى أن أفعله
لكننى بالنسبة للآخرين
لست أكثر من مجرد: ربما.
ستندال



- ١ -

فتحت النافذة

طالعتنى الحديقة الصغيرة كأنى أراها للمرة الأولى ,احتلت السيارات معظم مساحتها، وأحيطت بسياج من الشجيرات المقلمة، المتلاصقة. فى المواجهة، محطة الأوتوبيس، وقضبان المترو، وأشجار الظل، والسور الحديدى الطويل لنادى الشمس، يداخله سيرك الحلو ومجمع الأكواش والمقاهى ومحال بيع الأطعمة، تخلو حدائقه إلا من بنايات قصيرة، متباعدة، وتلوح فى أفقه بنايات جسر السويس. الصخب يصنعه تلاحق السيارات – على الناحيتين – بشارع عبد الحميد بدوى، وتلاصق العمائر وارتفاعاتها – فى أقصى اليمين – يشى بما صار إليه الحى.

أعبر الحديقة – كل صباح – نحو السيارة أمام الباب الخارجى. يشغلنى التحدث إلى موظفى المكتب، فى مسافة السير على الممر الضيق المبلط بالحجارة، يحيط بى، يزاحمهم ثلاثة، أو أربعة، من الحراس الشخصيين، يتوقعون ملاحظاتى، وما أريد فعله. أستكمل كلماتى من وراء النافذة، قبل أن أومئ برأسى إلى السائق جاب الله. ينطلق بالسيارة، يجرى المعاونون والحراس، وتليفونات المحمول تهتز فى أيديهم. يتشكل الموكب – فى انحناءة الطريق إلى وسط البلد – من أربع سيارات. يعبر الحديقة – فى ظلمة الليل – عائداً إلى الفيلا، ألقى آخر ملاحظاتى وتعليماتى.

مع أنى كنت أعرف الموعد باليوم، وتهيأت لأعوام الإقامة فى البيت. تحدثت مع إجلال عن الأماكن التى أنوى زيارتها، الكتب التى أهديت لى، وأحتفظ بها لأقرأها بعد أن تنتهى مشاغل الوظيفة، الوعد بدراسة مشروعات أقلب بها صفحات جديدة. تحدثت عن الراحة، ومراجعة النفس، والتأمل.

لم يكن الخبر مفاجئاً.

كنت قد أعددت نفسى لتلقيه منذ بدأت الأبواب تغلق أمامى، والمذكرات ترد بالرفض، والمكالمات التليفونية تعتذر بالانشغال.

تلاحقت التطورات، فتوقعت زيارة مهمة، من لا أعرفه تماماً، لكن الزيارة وضعت نقطة الختام.

أعددت نفسى لسحب السيارة والسائق جاب الله، اشتريت سيارة بى إم دبليو، السيارة نفسها التى استقلها فى العمل، أزمعت أن أقودها بنفسى.

ما حدث بدا لى مفاجأة كاملة.

قالت إجلال:

– غلطة الشاطر بألف.

بدا فى صوتها ما أثار قلقى.

أنا لم أخطئ فأدفع الثمن. حتى فى القعدات الخاصة، أبتعد عن أحاديث السياسة، لا أسأل، ولا أرد إن سئلت. أكتم مشاعرى فى نفسى، لا إيماءة موافقة أو رفض، ولا حزن ولا أسى ولا شماتة أو إعجاب. دردشات تخص الآخرين ولا تعنينى، أهمل محاولات جرّى إليها. ربما تعمدت أن أتجه بالمناقشة بعيداً عن قضايا السياسة: فيلم شاهدته، خبر قرأته فى جريدة، أسعار العملات، أحوال الجو، دورى كرة القدم.. ما يساعدنى على الأخذ والرد، دون خشية من المساءلة.

طالت السهرة فى الفيلا المطلة على هضبة الأهرام. صحبت أحمد أنيس، وجلست إلى من التقى بهم للمرة الأولى. شربت للمجاملة، ثم دفعنى الإلحاح إلى الشرب مرة ثانية، وثالثة. تعودت أن أشرب كأساً صغيراً من النبيذ، أحاذر فلا أجاوز السكر الخفيف، لا يثيرنى تباهى أحمد أنيس أنه يقوى على ابتلاع برميل.

قاومت اختلاط المرئيات، وإن اضطرنى إلحاح الأسئلة إلى التحدث فيما لا أذكره.

لو أنى اعتذرت عن الشرب - وقتها - لم تكن الأمور تنتهى إلى ما انتهت إليه.

كان الأمل يراودنى فى أن أظل فى المنصب، يمد لى فى رئاسة الهيئة سنوات هى من حقى، لولا المؤامرات المتوالية التى لا أدرى مصدرها.

أمر الرجل بإغلاق الحجرة. لم يغادر مكتبه فى مواجهتى. ألقى أسئلة كثيرة، عانيت ارتباكاً، نظرت - بتلقائية - ناحية الباب، كأنى أتوقع أحمد أنيس، يجيب عن كل الأسئلة.

زاد فى ارتباكى أنى لا أمتلك إجابة، لا أعرف ما يتحدث عنه، أغنانى أحمد أنيس عن الوسائل، فاكتفيت بالنتائج، لا أعرف ما قبل، التفصيلات التى أثق أن أحمد أنيس يعرفها جيداً.

قال الرجل:

- ما قلته تستحق عليه السجن، لكن أعوام خدمتك تشفعت لك!

وخرجت الكلمات من فمه بطيئة:

- لم يقرر المسئولون إقالتك، لكنهم يطلبون أن تقدم استقالتك!

ولوى شفته السفلى:

- يحرصون على صورتك أمام موظفيك!

صحت بالاستغراب:

- هل أقدم إجازة بدون مرتب؟

- أفضل أن تقدم استقالة.

- لم أخطئ بما يدفعنى إلى الاستقالة.

لا أذكر أنى ارتكبت خطأ ما، لا أذكر أنى أخطأت على أى نحو. كل ما

صدر من قرارات، قرأه أحمد أنيس، راجعه جيداً قبل أن أوقع عليه.

أخطر ما يواجهنى، تلك الحالات المتباعدة، المتقاربة، من الشكوك حول قضية ما. تغيب الحلول، فأتصور أنه لا يوجد حل، يحاصرنى الضيق وفقدان الأمل واللاجدوى. تنقذنى نصيحة أحمد أنيس.

وشى صوت الرجل بنبرة محذرة:

- إذا رفعنا الغطاء فستصدمك الرائحة الكريهة.

رويت للشيخ حسن الحامولى إمام جامع السيدة خديجة عن حلم فى نومى. راعنى التحول من هيئة الأنثى إلى هيئة الذكر، رأيت نفسى امرأة وليس رجلاً.

قال الشيخ فى نبرة مشفقة:

- تفسير ما رأيت زوال السلطة من يدك.

- ما شأن السلطة بتحولى إلى امرأة؟!

- هذا هو تفسير الحلم.

ثم وهو يكوم مسبحته، ويدسها فى جيب قفطانه:

- اقرأ ابن سيرين .

اقتحمنى شعور بأنى أهبط إلى أعماق الظلمة، دون أمل فى النجاة.

صرخت بآخر ما عندى، وأنا أسقط فى هوة الابتلاع.

قالت إجلال:

- لم تعتزل بالمعاش، ابتعدت وأنت فى القمة.

- أُبْعدت ولم أبتعد.

- شكليات لا قيمة لها.

اهتز فنجان الشاى فى يدى، أعدته إلى الطاولة:

- يشيعون جنازتى فى حياتى.

وبللت شفتىّ بطرف لسانى:

– تثيرنى كلمات المواساة والتعزية!

أردفت فى نبرة متصعبة:

– مؤلم أن أتسلم شهادة وفاتى وأنا حى!

هزت إجلال رأسها:

– لم يحدث.

وفردت ذراعيها على اتساعهما:

– المستقبل أمامنا.

حدثتنى إجلال عن الحياة بعيداً عن الرسميات. الخضوع للإرادة الخاصة، لا لإرادة المنصب. لم يعد من المطلوب أن أذهب إلى مكان لا أحبه، ولا ألتقى بمن يضايقنى رؤيتهم، ولا توقع من لا أريد استقباله، ولا الرد على مكالمة تليفونية فى عز الليل، ولا الالتزام بمواعيد قد لا أحب الالتزام بها، ولا الحرص على ما أرتديه من ملابس حتى داخل البيت. أمشى حافياً، أكتفى بثيابى الداخلية، أدندن بما أتذكره من أغنيات، أشم الهواء الذى يجب أن أتنفسه، النوم فى الموعد الذى أختاره، الصحو دون منبه، الأكل دون رسميات، النظر من الشرفة، دعوة النفس على فنجان شاى، مشاهدة التليفزيون، سماع الراديو، قراءة الصحف، إعادة ترتيب المكتبة.

لماذا تقترن فكرة الاعتزال بالمكان الرومانسى: الفيلا على الخلاء، البيت الصغير فى قلب الغيطان، الجلوس على المصطبة أمام الدار، اختلاط أصوات رفع الأذان، ووابور الطحين، ودوران الساقية، وزقزقة العصافير فوق الأشجار، قضاء الأوقات قرب ضريح الولى، الحياة داخل الصحراء التماساً للهدوء .

ترامى هديل حمامة، أعرف أنها جعلت لنفسها عشّاً تحت إفريز النافذة

المطلة على الشارع الجانبى.

– أنا لست أكبر أصدقائى، تصورت أن الحياة أمامى.

أشحت بوجهى إلى الناحية الأخرى، حتى لا ترى الدمع فى عينى:

– إذا غاب كل أصدقائى، ربما أكون قد مت، أو أن حياتى لن تطول!

استعدت عبارات تلاحقت فى وداعى : سنفتقد سيادتك.. تعلمنا منك الكثير.. ستظل لنا قدوة.

تكلم إيهاب شندى عما تحقق فى عهدى، جعلت استكماله – على من يخلفنى – صعباً.

قال مجدى الحسينى:

– بل سيكون مستحيلاً ,ما بنى لا يمكن أن تضاف إليه طوبة واحدة!

لم أصدق العبارة حين سمعتها: أعطانا عرض أكتافه.

هل أنا المقصود؟

لحقتها عبارة: أعطانا آخر قفاه، تردفها نظرة ذات معنى.

أدركت أنى المقصود بها.

لم أخف قلقى:

– هل يعرف حازم ما حدث؟

– ماذا حدث؟

– تركى العمل.

وهى تهز يدها فى تهوين:

– حتى لو عرف، فستظل والده الذى يحبه.

تعرف حبى لحازم، أحبه لأنه ابننا الوحيد، ولأنه يشبهنى فى تكوينى الظاهرى: القامة الطويلة، البشرة القمحية، العينين البندقيتين، الأنف المستقيم، الشعر الأسود، الغزير، وإن تغلب البياض فى رأسى.

اتصل أحمد أنيس بمن أعرفه، ولا أعرفه، حتى تحققت رغبته فى دخول كلية الفنون الجميلة. لا يحب الأرقام والإحصاءات ودراسة الجدوى وأسعار السلع والصادرات والواردات، كل ما أناقش فيه أحمد أنيس لما ألزم البيت. يخلو إلى نفسه فى حجرته، يقرأ، يرسم اسكتشات، يدير تسجيلات لموسيقيين غربيين، نادراً ما يجلس إلينا فى الصالة، أو يشارك فى أحاديثنا، حتى التليفزيون يقصر مشاهدته له فى حجرته.

كنت أدرك أن يوم فراق الوظيفة سيأتى، لكننى لم أتصور أن يأتى بهذه السرعة، وبهذه الكيفية .

كنت كل شيء، أصدر الأوامر، أوزع المهام، أوقع القرارات، أصبحت – بالمفاجأة – لا شيء .

ما حدث كان يجب أن أتوقعه من سنوات.

أعددت جيداً خطوات ما قبل الإحالة إلى المعاش، أخلف الوظيفة بعد أن أمتصها تماماً، المدة الحقيقية بينى وبين نهاية الخدمة ثمانى سنوات. شغلت فكرى فى من يتوسط كى أمد فترة خدمتى ثلاث سنوات. أعرف أن ذلك هو الحد الأقصى لمد فترة الخدمة. أعددت نفسى لمنصب مستشار الهيئة، منصب بالتعاقد لمدة عام قابل للتجديد، سنة، وسنوات تالية، لا أترك الهيئة.

إذا كانت الواسطة من أعلى فقد أتوق لمد خدمتى حتى أشبع. لم أتوقع أن تختفى التوقعات فى لحظة لا أتوقعها، ولسبب يصعب أن يأتى فى بالى: العداء للنظام.

لماذا يقضون بإعدامى على ثرثرات أملاها السكر، ولا يقدرون دفاعى عن النظام، إلى حد الدخول فى مشادات كلامية، كادت تتحول – أحياناً – إلى معارك بالأيدى.

الحياة التى تنتظرنى لا معنى لها. لم يعد لدى ما أفعله، ذلك ما عشته

بعد أن تركت أحمد أنيس يفعل الصواب، ما يرى أنه الصواب: أستمع إلى الأغنيات حتى أملها ، أرفع الأفلام التى أشاهدها فى الفيديو فلا أعيدها، أفارق القلق والتوقع والتخمين .

أزمعت أن أفعل ما لم أكن أفعله من قبل. أسير فى الشوارع، أتأمل الفاترينات، أقف فى طوابير القطار وفواتير التليفون والسينما، أتردد على مقاهى وسط البلد، أقرأ صفحات الرياضة والفن والجريمة، أبدى الملاحظات، فأستمع لنفسى فى متابعة المسلسلات ومباريات كرة القدم.

لاحظت فى نفسى الميل إلى السير دون هدف ما، أجول فى الشوارع، لا أعنى بالنظر إلى ما حولى، ألفت اختراق ميدان التحرير، أعبره إلى الأحياء المتصلة به، أسير فى شوارع قصر العينى والتحرير وطلعت حرب وقصر النيل، لا أعرف أين، ولا متى أتوقف، يأخذنى الزحام والمرئيات والتلفت.

كانت المرة الأولى التى دفعنى ما لم أتبينه جيداً: التعب، أو طلب المغايرة، أو فضول الفرجة، إلى الجلوس على مقعد فى مواجهة تمثال عمر مكرم، من حولى زوار المجمع والمارة والباعة والمتناثرون بلا عمل، الجامع إلى اليسار، يمتد من أمامه الطريق إلى جاردن سيتى، يطل عليه مبنى المجمع بنوافذه المتقاربة، الموحدة الشكل، ومحطة مترو أنور السادات، وفى مدى النظر بنك الائتمان الزراعى، والجامعة الأمريكية، وبناية بحرى، ولافتات هارديز، وماكدونالدز، وبيتزا هت، ولافتة كنتاكى فى موضع أسترا الذى زال بلا سبب، وعمر أفندى، ومحال البازار، وشركات السياحة، ومكاتب الصرافة، ومبنى الجامعة العربية، والمبنى القديم لوزارة الخارجية، وفندق هيلتون، والمتحف المصرى، وميدان سيمون دى بوليفار، ومحطات المترو، والشوارع المفضية إلى أحياء القاهرة.

حين مالت الشمس ناحية الغروب، أخفقت فى تذكر المكان الذى أقصده.

عدت إلى موقف عبد المنعم رياض. اتجهت بسيارتى ناحية الميدان، صعدت الكوبرى عائداً إلى مصر الجديدة.

صحوت - ذات ضحى - على هزة قبضتها لكتفى، ونظراتها تشى بالخوف. استدرت إلى الناحية المقابلة:

- لا شيء أصحو من أجله.

تنبهت إلى السؤال:

- ألم تعد ترغب فى رؤية أحد؟

أشحت بوجهى:

- لم أعد أرغب حتى فى رؤية نفسى!

- ٢ -

– من تولى المنصب؟

قال ماجد الحسينى:

– أحمد أنيس.

همست فى صوت كالحشرجة:

– أحمد أنيس؟

استعدت القامة الصغيرة، المدكوكة، والبشرة الدهنية دائمة التفصد، والجبهة الواسعة، والوجنتين البارزتين، والأنف الذى تعلوه الحمرة لمسحه المتكرر بجانب يده، والأسنان التى اختلط فيها السواد بالصفرة.

أعادت إجلال الاسم:

– أحمد أنيس ؟.. هذا رجل لكل العصور، خادم لك، خادم لمن سبقك.

لم أواجه إجلال بالسؤال: لماذا ترفضه؟

تبينت – متأخراً – أنى اخترت الشخص غير المناسب، فى المكان غير المناسب، لا شأن لأحمد أنيس بالوظيفة، من حيث التخطيط والتنفيذ والإنتاج، لكنه يجيد التآمر والإيقاع بالآخرين.

لم أكن أعرف أحمد أنيس إذن، إنه شخص آخر يختلف عن الشخص الذى رشحته لاختيارى خصال تصورتها فيه.

أدركت أن الوقت الذى يضيع لا يمكن أن أسترده، أو أعوضه، السؤال الذى شغلنى هو: كيف أجاوز ذلك؟ كيف أحتفظ بالوقت، لا أضيعه؟

أشعر بالاستياء، السخط، الغضب، على من يعبر حياته، لا يعيشها بصورة حقيقية، يبدو ما مضى بلا أهمية، كأنه لم يوجد أصلاً.

إذا لم أحسن استغلال الوقت، فستكون الحياة قصيرة، هى تطول إن أضفنا إليها وقت الآخرين، نأخذ من حياتهم، نضيف إلى حياتنا.

اختيارى لأحمد أنيس هو الوسيلة التى تصورتها، بدا لى عفياً، مستعداً، يمتلك الفائض من الوقت.

أنقذنى أحمد أنيس مما لاحظته أنا فى نفسى ، صعوبة التحدث فى الجماعة، تأخر حضور البديهة بما يرد الملاحظة فى أوانها. ربما بداية ما أعانيه فى أيام السعيدية الثانوية، والجامعة، والغربة وسط الآخرين، وندرة الأصدقاء، والاكتفاء بالنظر إلى البحر دون التمشى على الكورنيش.

أهم ما حثّنى على الاطمئنان إلى أحمد أنيس، التزامه الصمت، وصيانة الأسرار. لم أكن أتحدث عما رأيته أو سمعته، حتى بالنسبة للأصدقاء وزملاء العمل. الأخطاء الإنسانية واردة، وعلينا أن نهب الفرصة للتجاوز، البالوعة ذات الرائحة الكريهة ينبغى سد فوهتها. انتهرته – مرة – لدوام صمته:

– ألا يوجد حولنا ما يستحق أن تكلمنى عنه؟

قال أحمد أنيس:

– نحن فى حاجة إلى حب الناس لا إلى كراهيتهم .

قالت إجلال :

– أنت الذى أعطيته الفرصة ..

ألقيت الجريدة التى كنت أقرأها، على الطاولة الصغيرة، واتجهت إليها بتساؤل غاضب:

– أنا ؟!

– ما فعلته أنك اكتفيت بالرئاسة، بالواجهة والوجاهة.

دخلنى شعور بالحاجة لأن أبل ريقى:

– أميل الناس للشر يجيدون إخفاء طبعهم!

داخل صوتها تهدج:

- لكنك اكتفيت بالصمت العاجز وهو يدير الهيئة كما يشاء.

والتمعت عيناها بالغضب:

- أتحت له أن يستولى على حياتك، ويتصرف كأنه أنت. أنت الآن غير موجود، أو أنك موجود فى أحمد أنيس!

شعرت بالكرسى كأنه يهتز من تحتى:

- أحمد أنيس منديل ورقى، أتخلص منه فى الزبالة!

بدت كالصور التى امتصها الزمن، كالأصداء البعيدة، وقفتى فى انتظار المصعد، أمام شباك السينما، ومكاتب شركات الطيران، وداخل البنك، وترقب موعد كشف الطبيب، وانتظار إشارة المرور.

مددت يدى - بتلقائية - إلى كوب ماء أمامى، جرعته فى دفعة واحدة:

- هل أترك ما بنيته لملاحظة أبديتها؟

وغالبت ارتعاشة فى صوتى:

- تكلم إيهاب شندى عن الملاحظة.. لكنه لم يحددها.

تراجعت إجلال بصدرها لصوت ارتطام قبضتى بالطاولة:

- حتى النشال يعرف تهمته.. تهمتى لا أعرفها!

مدت أصابعها، تزيح إلى الخلف خصلة شعر تهدلت على جبهتها:

- وشاية.

أكلنى القلق:

- ماذا قلت؟

- انس الأمر!

هل تعرف ما تخفيه؟

حين أعاد الرجل التسجيل أمامى، واستمع إلى صوتى، والكلمات التى قلتها، أدركت أن الغلطة تجاوزت كل الأرقام، وأن أحمد أنيس أحسن تدبير

فعلته. لم يعد أمامى إلا التسليم بأنى تكلمت، وإن كنت لا أذكر لماذا، ولا الظروف التى أوقعتنى فى الخطأ. أبعدنى عن كل شيء، حتى ما ينبغى أن أعرفه لأتدبر خطواتى التالية.

وأنا أتأمل الفراغ:

– هو محمد أبو الذهب الذى انتظر، حتى حقق على بك الكبير انتصاره، فقتله، وحل مكانه.

ونفضت رأسى:

– لكننى لست على بك الكبير.

وأشرت إلى صدرى:

– أنا رضا شهبون.

حين تركت لأحمد أنيس أن يأخذ أوراقى الخاصة من أوراق مكتبى، لم أتصور أنه سيحتفظ بما يرى أنه يبتزنى به، لا يريد أن يكون مساعداً لى، تابعاً لى. كانت عيناه على الكرسى الذى أجلس عليه. عرف كيف يسدد الطعنة. أجاد اختيار موضع الطعنة فأحدثت تأثيرها القاتل.

هل كانت ثقتى العمياء فى أحمد أنيس دافعاً لتآمره ضدى؟

عرفت أن مؤامراته ومكائده وشائعاته تخلت عن إلحاق الضرر بالآخرين. حاول أن يلحق الضرر بى شخصياً. أعرف إجادته صناعة المكائد، وحبك المؤامرات، وإزاحة من يتصورهم خصوماً، التآمر وسيلته فى كل ما يريد بلوغه، الشائعات والحيل والدسائس والمكائد والأكاذيب والشكوك، حتى الأشياء البسيطة والتافهة، يلجأ إلى التآمر لحيازتها، حتى أوامرى بفرم التقارير، أهملها، يسر لهم الحصول عليها.

كان ينبغى أن أحدس ما يعد له نفسه فى تعلمه الأبراج، وعلوم الفلك، وقراءة الطالع، وفهمه لقوانين الألعاب الرياضية، وحفظه لفرق الوقت فى

مدن العالم، وللنكات الحديثة، وتردده على معارض الفنون التشكيلية، واقتنائه أهم اسطوانات الموسيقى العالمية، والشعبية، وإجادته تلخيص الروايات والمسرحيات والأفلام بما لا يخل بالمعنى.

فطنت إلى استهواء السلطة له، طمعه فى المنصب الرفيع. لم أقدّر أن منصبى، الكرسى الذى أجلس عليه، هو ما كان يتطلع إليه أحمد أنيس، مستقبله الوظيفى معقود على إبعادى عن الهيئة، أو إحالتى إلى المعاش.

كان على استعداد لتخطى كل الحواجز التى قد تعوقه عن تحقيق أحلامه. حتى الإهانة انعكاس لإعزاز تغلف بكلمات قاسية. قد يهمل ما يوجه إليه من إهانات طالما كان ذلك سراً، يخرج من المكان المغلق وعلى شفتيه ابتسامة مطمئنة، يتحدث - بلهجة تبريرية - عن فنجان القهوة الذى شرباه فى جلسة هادئة، يثق أن الذى لا قيمة له، ربما يصبح - فى زمن يحفل بالمفاجآت - شيئاً مهماً، من الصواب أن نحاول خطب وده. رفض صداقة من نستصغر شأنه، خطأ يصعب معالجته بعد أن يصبح الشخص ذا شأن. هذا زمن الاستثناء هو القاعدة، وغير المتصور هو الحقيقة.

لو أنى كنت مكانه، هل كنت أفعل غير ما فعل؟

لم أكن أتخذ قراراً إلا بمشورته، حتى قوائم الترقيات والمرتبات والعلاوات والحوافز والبدلات والانتقالات والمكافآت والخصومات والعمل الإضافى والجزاءات الإدارية والإحالة إلى التحقيق.

اطمأن أحمد أنيس إلى دوره كذراع يضرب بها رضا شهبون، يتوعد، يرشد، يفعل ما لا يقوى عليه أحد. أعرف أن دفتر التليفونات الصغير فى جيب جاكتته العلوى، يضم أرقاماً سرية، وخاصة، لشخصيات تفتح له الأبواب المغلقة. صار لديه أصدقاء نافذين.

هو يفعل - باسمى - ما يريد، يلعب دور الوسيط والسمسار، يعقد

الصفقات، يفرض العمولات، يسرق، يزوّر، يبتز، ينهب، يرسى العطاءات على سماسرة يعرفهم. من لا يعرف ينسب ذلك كله إليه، يحمّل الأسعار بحسابات أعباء، ومصاريف غير منظورة. ثمة كشوف أملاها التزوير، مكافآت حضور، وسفريات، بدلات سفر، بدلات انتقال.

لا شأن لى.

ذلك ما فعله أحمد أنيس.

أشرد فى تقاطع الكلمات وتشابكها: هذه برامج التليفزيون عن مشوار حياتك.. عندى قوائم لكل المناسبات السعيدة للأصدقاء.. وقتك أثمن من أن تبدده فى هذه التفاصيل الصغيرة.. نحن أولى بالوقت.

اقتصرت استعانتى به - لفترة طويلة - على الهيئة، والجهات التى تتعامل معها، هو سكرتير وسائق ومدير للعلاقات العامة، وهو - بعد أن سكتت إجلال عن تردده على البيت - طباخ وخادم وساعى، وكنت أجلس إليه فى الشرفة المطلة على نادي الشمس قبل أن أنزل إلى العمل. يعرض - فى عبارات موجزة - تطورات العمل.

عرف كيف يسلك سبيله. يفعل أى شيء ليظل مهماً، يفعل ما تمليه نفسه، لا أقل ولا أكثر، ولا وازع لديه.

لا يهم إن كانت الوسائل غير مشروعة، المهم أن يتاح الوصول إلى الهدف. لم يكن أحد يعلم، ولا عكست ملامحه، ما يدور فى نفسه.

كانت إجلال تفضل أن تبقى فى حجرتها لا تغادرها. إذا جلست فى الصالة، اكتفت بمتابعة المناقشات بينى وبينه دون أن تشارك برأى.

فسرت اختيارها العزلة داخل حجرتها، بالحرص على مساحة - تحددها - بينها وبين المترددين على البيت من العاملين معى. حتى جاب الله السائق كانت تشدد على شكرية الخادمة، توارب باب الشقة، تأخذ ما

يحمله، وتغلق الباب، دون كلام من أى نوع.

قالت إجلال إن العالم لا ينتظر حتى نراجع أنفسنا، نتبين - فى تصرفاتنا - الصواب والخطأ، وتوقعات الأيام المقبلة.

تخللت أصابعى بأصابعها، ودنت بوجهها:

- لنوطن أنفسنا على النظر إلى الأمام، وعلى الفعل!

رنوت إلى عينيها، ميزت - لأول مرة - لونهما البنى، الرائق، ينسجم مع سمرة البشرة، كنت أحب الأنف الدقيق، والشفتين الورديتين، والحاجبين الدقيقين كأنهما رسما بقلم، تأسرنى عقصة شعرها فى شكل ذيل حصان، تطوحه خلف رأسها، والفستان السماوى الشفاف يضفى عليها ملائكية جميلة.

طوقتنى بنظرة حانية:

- إذا أردت إنهاء مسألة سخيفة فلا تتحدث عنها.

وأطرقت لحظة، ثم رفعت رأسها:

- المجرور الذى تصدر عنه رائحة كريهة لا تتردد فى إغلاقه!

وفى نبرة حاسمة:

- حاول أن تؤدى أعمالك بمفردك.

- ٣ -

قالت إجلال:

- من حق الحبل المشدود أن يسترخى قليلاً!

داخلنى الشك فى كل ما يحيط بى، وكل من عمل تحت إمرتى. أحمد أنيس حلقة فى سلسلة تغيب بقية حلقاتها. غلبنى الهم، صرت كثير التلفت، دائم التوقع.

ضغطت على زر " الديكتافون ".

قلت للسكرتيرة:

- لا أريد أحمد أنيس.

قالت إجلال:

- هو لم يتصل.

- لا أريده الآن، ولا أريده فى أى وقت.

وعلا صوتى كالصراخ:

- لا أريده فى حياتى كلها!

كان يجب أن ألحظ انفراده بالأوامر، وأن أكتفى بالوقوف على الهامش، أراقب، وأتابع، لا أفعل ما يساوى وظيفتى.

أصل المشكلة أنى لم أكن أريد أن أرهق نفسى فى الأشياء التافهة، يغنينى عن أدائها من أضع فيه ثقتى، أطلب فينفذ ما أطلبه، لا أسأل: كيف؟ النتيجة وحدها ما يهمنى.

أعانى نفاد الوقت بما لا يتيح لى قضاء ما أريده، تبدل الحال فلا أعرف كيف أمضى الوقت.

لم يعد عندى وقت أخشى ضياعه. تصالحت مع الوقت دون تصور مسبق، ولا إعداد. لا أضيق بالمكالمات الطويلة، وأتمناها، لا أطرح السؤال

إن كانت الزيارة سبقها موعد، أستعيد ما كان من الاجتماعات.

فكرت فى أن أنكر وجود الوقت، لا أعترف بتأثيره على حياتى. حاولت أن أصحو وأعمل وأنام، لا يرتبط ما أفعله بشروق الشمس ولا غروبها، ولا أيام السبت والأحد إلى نهاية الأسبوع. حتى الساعة نزعتها من يدى، فلا يشغلنى ما فات ولا ما أترقبه، لكن التأثير ظل قائماً وممتداً. أصر الآخرون على السنة والشهر والساعة واللحظة، أصروا على الوقت.

الرجل اليويو، حصل بقفزاته التى لا تنتهى على أرض جديدة. المساحات التى تطلع إليها غابت عن تصوره هو نفسه. أراد المنتهى، المطلق، حصل – بمفرده – على كل شيء، لا يهم إن كان انفراده سيقيده بالعزلة. المهم أن تتواصل القفزات.

تساهلى هو الذى دفع أحمد أنيس إلى استبدال الجرى بالخطوات البطيئة. جرى، وجرى، تخطى الموانع والحواجز، لجأ إلى الواسطة والعلاقات الشخصية، عرف الطريق إلى الصفقات المخفية، والمصالح المتبادلة. ربما ذرف فى انفعاله – الذى أثق بكذبه – دمعة حقيقية، ربما داخلنى تأثر، يغيب عن ذاكرتى أن الأمر كله تمثيل، ناقشنى – من قبل – فى تفصيلاته.

لم يعد أحمد أنيس الذى أعرفه.

ثمة ناس، بشر، دورهم خدمة الآخرين، تلبية ما يطلبون، تنفيذه. هذا هو اقتناعهم، يعبرون عنه بكل الوسائل. من يجرى وراء سيارة المسئول ليفتح له الباب، السكرتير الذى يجد أهمية فى تدبير مواعيد اللقاءات. إنه يتصور جداراً لطموحه، يحرص أن يكون آخر ما يصل إليه، يجد سعادته فى إتاحة الفرصة للآخرين، لواحد آخر بالتحديد، كى يقفز من فوق الجدار ، يمتد شعوره بالسعادة فى الفرصة التى يتيحها له ذلك الواحد الآخر.

لم يكن اختيارى لأحمد أنيس عن قصد، هو الذى أجاد تقديم نفسه. كان أسرع موظفى المكتب الستة فى تلبية ندااتى: أفندم !، يضم كعبى حذائه إلى بعضهما، يكتب تقاريره على اللاب توب بما يعين على القراءة، يتابع اتجاه نظراتى، فيأتى بما تستقر عليه عيناى.

كانت تصرفاته انعكاساً لتعبيرات ملامحى، وكلماتى، وتصرفاتى. أرحب بالزائر، أبذل له الود - هذا ما يحرص عليه أحمد أنيس - أعتذر عن عدم اللقاء، يحرص أحمد أنيس - فى الزيارات التالية - على جفاء التعامل.

كان يرافقنى إلى أى مكان أذهب إليه، لعلى أنا الذى كنت أرافقه، ليس سكرتيراً ولا حارساً، ولا حتى صديقاً، لكنه ظلى الذى لا يفارقنى.

تعددت أسفارى إلى خارج مصر، نسيت الوقفة أمام مكاتب شركات الطيران وكاونتر الجوازات، أنا أعبر قاعة كبار الزوار إلى خارج المطار. أحمد أنيس يسهل كل شيء، هو يتصرف وإن كنت لا أعرف كيف، تظل حقائبى مغلقة، لا تمتد إليها يد بالتقليب أو التفتيش، أفطن إلى دور أحمد أنيس في الرحلة منذ بداياتها.

إذا بدا السؤال مفاجئاً، لا تواتينى إجابته، فإنى أتجه بنظرى إلى أحمد أنيس فى وقفته بالقرب منى. أطلب عونه، يتدخل بالكلام، أو بالتصرف، دون أن يقتحمنى بما يحرجنى.

يتفحص عنايتى بالقميص المكوى، ومن الياقة حد السيف - هذا هو تعبيره - والذقن الحليق، والحذاء اللامع.

لم أعد أعرف القرار الذى يجدر بى أن أتخذه، ولا ما يجب عليه هو كذلك. اختلطت الرؤى، وتشابكت، فلا أعرف إلا أنه ينبغى أن أسلم نفسى للهدوء، وما يشبه الاستسلام. أكتفى بالمتابعة الصامتة، الساكنة، لا أفكر، ولا أتكلم، ولا أقدم على أى فعل. حتى التصور لم يعد يطرأ ببالى.

يسر لى كل شيء، بدت الحياة جميلة وسهلة وبسيطة، أعيش اللحظة بلا قبل ولا بعد، أحمد أنيس ينهى الإجراءات من ألفها إلى يائها، أخطو فى الأرض الممهدة دون تلفت. أنادى، أضغط على الجرس، أجلس فى مقعد السيارة الخلفى، أخترق الزحام دون مضايقة، أهمل التفكير فيما أترك لأحمد أنيس أن يعنى به.

أحمد أنيس وحده هو الذى يفعل كل شيء.

طلبت من أحمد أنيس أن يضع الرجل تحت مراقبته، يكتب تقارير عن سلوكه وتصرفاته.

لما بدا الرجل صعب الاختراق، قال أحمد أنيس فى تهوين:

– دع لى مسئولية التعرف لثمنه.

– ثمنه ؟!

– لكل إنسان نقطة ضعف يمكن النفاذ إليه منها، ندفع الثمن الذى يريده.

وعدل ياقة قميصه:

– ما نفعله لا يعرف الصداقة ولا العواطف، يأخذ عملاؤنا المقابل الذى يقنعهم، فنقدم لهم ما يريدون.

قلت محذراً:

– أنت تخطط لكل شيء، لكن النتائج قد تأتى عكسية.

قال بنبرة ملونة:

– نحن لا نحتاج لشيء، حدنا القانون مهما زادت المغريات.

لكزته بطرف القلم:

– أنت شيطان!

وقعت –بإرادتى – فى الشرك الذى أجاد أحمد أنيس نصبه لى، لا يترك

المكتب فى وجودى، وفى غيابى. يرد على التليفون، يتلقى المكالمات، يدون الأسماء التى أطلبها، أو تطلبنى، يعد الملفات وبريد الوارد، يتسلم البريد الصادر، ينسق مواعيد الاجتماعات. يرتب مواعيدى، يذكرنى بها، يعد لى المذكرات والمستندات، يتابع فى الإدارة القانونية ما تعده من المذكرات والمحاضر ومشروعات القوانين، يشرف بنفسه على اللقاءات الصحفية والتسجيل للتليفزيون وترؤس اجتماعات اللجان، يزيل عنى حرج تقديم نفسى، تتلاحق الكلمات من فمه، مختلطة بتقديم الاسم والصفة والقيمة والمكانة، وما يداخلنى من أحاسيس بالمفاجأة والاعتزاز والسعادة، يحجز فى المطاعم والكازينوهات وعروض الأزياء والسكك الحديد وشركات الطيران، يقف فى طوابير المسارح ودور السينما وحفلات الأوبرا. ترددت على أماكن كنت أتأكد من أسمائها قبل أن أرافقه إليها: أندية وفنادق وكازينوهات ومطاعم ومسارح ودور سينما. صحبته - هو تابعى - إلى الأندية والمطاعم ودور السينما والمسارح وفنادق النجوم الخمسة والعوامات والكازينوهات على النيل.

سرعة التصرف هى ما يشترطه أداء عمله.

لم أكن أجد الوقت حتى لقراءة رسائلى الشخصية. أضعها داخل الوراقة، أنساها حتى يذكرنى بما فيها أحمد أنيس، يفتحها، ويتصفح ما فيها، يرد على التليفون، يسجل الأسماء، يعتذر بانشغالى لمن يعرف ضيقى باتصالاتهم، ينوب عنى فى حضور مراسم العزاء، والمناسبات الاجتماعية، وافتتاح مواقع العمل. أترك له مهمة التفكير فيما يرهق ذهنى.

أعرف أنه يجيد التغلب على كل العقبات التى ربما تواجهه.

يضايقنى الوقت البليد، الخامل، الذى يخلو من معنى، يمضى فلا أتذكره، أضيفه إلى أوقات النوم، وإن تذكرت شذرات من الأحلام: الفرجة

على برامج التليفزيون، الانتظار على محطة الباص، الوقوف أمام شباك القطار ودار السينما والمسرح، الجلوس الصامت لانقطاع التيار الكهربائى، إلحاح الزيارات الشخصية.

الوقت الضائع يتخلل ما بين النوم والصحو وتناول الطعام والقراءة والتأمل. ربما يمتد الوقت رائقاً، لكنه يخلو من إمكانية الفعل. ألاحظ الزائر يكثر من النظر إلى ساعة يده، أحدس حرصه على الوقت، هو يصل بين زيارتى ومواعيد يتهيأ لها.

لا أستطيع أن أعوض ما فات من الوقت، أو أسترده، كل وقت له ظروفه. لم أكن أريد الوقت لذاته، أمتلك وقتاً لا أعرف كيف أنفقه، أريد الوقت الذى يتيح لى الإدارة على النحو الذى يرضينى، أطمئن إلى المعنى، لكى نفيد من الوقت فقد عرفنا السنة والشهر والأسبوع واليوم والساعة والدقيقة والثانية، كلها تعنى الوقت. لو أنى استعدت كل تلك الأوقات الشريرة، فسأعانى قلة الوقت المتاح لى كى أتم ما أريده. يغيظنى من يكتفى بفتح الأبواب وإغلاقها: تنفيذ الأوامر، أداء الخدمات، قيادة السيارة، تسجيل الأسماء، هو يعبر حياته، لا يعيشها.

أهملت قول خميس توكل المحامى: كن على حذر مما يدبر ضدك.

استغرقنى عالم أحمد أنيس تماماً. أعددت نفسى – عند بلوغ سن المعاش – لوظيفة مستشار، لا مدة لنهايتها، وإن شحبت سلطاتى بالقياس إلى ما أمتلكه من سلطة الرئيس.

رنوت ناحية الباب الموارب، أتأكد إن كان أحد قد رأى ما فعلت.

قلت:

– أنت تأخذ قرارى؟

ارتعشت أهدابه:

– أنا أحدس رأيك.

غالبت نفسى فلا يبين ما أعانيه:

– ماذا أفعل أنا إذن؟

– أنت تخطط وتشرف، وأنا أنفذ.

حدجته بنظرة تفتش عن معنى غائب:

– هذا لم يعد يحدث.

خمنت السؤال الذى كتمه فى نفسه: لماذا اخترته دوناً عن بقية الموظفين؟

من حقى أن يعاد النظر فى موقفى، ما أثير ضدى من اتهامات لا أعرفها. تحدثوا عن اتهامات دون أن يحددوا تلك الاتهامات.

أعرف أنه لا يوجد فى ملفى – حتى من قبل أن أصبح رئيساً للهيئة – شائبة من أى نوع، المثالية هى الصفة التى تنطبق على مراحلى الوظيفية.

تعددت واردات الهيئة، آلات النسيج والطباعة وخشب الزان والساج والأرو وخشب البناء والأسمنت وصفائح الأسقف والأدوية والورق والدخان.

وقعّت على ما تبينت أنه كان توريطاً فى قرارات مشبوهة، لو أنها مضت فى مسارها لكان السجن بديلاً للأمر بتقديم استقالتى، ربما خشى أحمد أنيس أن يلامسه الخطأ، فاكتفى بما أبعدنى من الشركة.

لم يعد لأحمد أنيس فى حياتى ما كان من قيمة سابقة.

الكره لأحمد أنيس يملأنى، يسيطر على مشاعرى تماماً، لكننى لا أتصور حياتى بدونه، لا أتصور أنى أتصرف فى غيبة من نصائحه وتوجيهاته.

أخشى الفشل.

- ٤ -

هذه هى المرة الأولى التى أترك فيها البيت منذ فترة طويلة. أشعر أن المدة قد استغرقت أشهراً، أو سنوات، تحدد فيها عالمى بين جدران البيت.

أن أظل حبيس الجدران الصماء مسألة قاسية، لا أتصور، ولا أقوى، عليها، ركبنى ملل شديد، لا أعرف ماذا أصنع بوقتى.

قالت إجلال:

- لم تذهب منذ فترة إلى الطبيب.

حدقت فى ملامحها، أفتش عما تخفيه:

- أنا لا أشكو شيئاً.

فى لهجة مهونة:

- الأصحاء يترددون على الأطباء للاطمئنان على صحتهم!

اعتذر الطبيب بمشغولياته عن عيادتى فى البيت. رافقتنى إجلال، أصغيت إلى النصائح جيداً: أمشى ساعة كل يوم، أحرص على ضبط السكر، أتذكر موعد تناول حبة دواء الضغط، أتناول - من قبيل الاحتياط - نصف حبة زنتاك، أقصّر جلستى أمام التليفزيون.

لم يعد من المقبول أن أبتعد عن الناس، يدفعنى الخوف - أو ما لا أدرى - إلى الاختفاء.

أجدنى إنساناً جديداً لم أكن أعرفه، أقرب إلى الطفل الذى يخشى تعثر خطواته.

تذكرت نكتة قديمة رواها لى أحمد أنيس عن زعيم سياسى رحل. قيل إنه كان - فى نهايات أيامه - ينادى على جرسون الكازينو: هات واحد يقعد جنبى!

الوحدة قاتلة!

التغير ليس حولى فقط، ليس فى غياب سيارة الحراسة، والحراس الشخصيين، والمعاونين الذين يلازمون خطواتى، التغير فى داخلى أيضاً، فى إحساسى بالوحدة.

هؤلاء الذين انتزعوا من الأضواء والزحام والإعلام والحاشية والسكرتارية والحراس، يصعب عليهم أن يواجهوا العزلة!

ربما كان أحمد أنيس محقاً فى قوله إنه هو صاحب المولد، وإنى كنت ولياً مقطوعاً نذره!. لا تشغلنى الصورة الحقيقية لما كنت أحياه، ما يشغلنى هو الحياة نفسها، الأسئلة والزحام والنداءات والهتافات والأضواء والمناقشات والصخب.

أحتاج من يجالسنى، من ينصت إلى آرائى وملاحظاتى، يروى لى كل ما يجتذبنى، ويثير انتباهى.

معظم وقتى فى البيت. لم يعد التليفون يرد على المكالمات: نشكركم على الاتصال، سنتصل بكم فى أقرب فرصة. التليفون جانبى، أرفع السماعة فى أوقات تعالى الرنين، المتباعدة.

أشاهد فيلم التليفزيون إلى نهايته، أشرد، أتنقل بين جزر واضحة المعالم وشاحبة، لكننى أظل فى مكانى حتى تعلو أسماء العاملين فى الفيلم. أعرف أنه انتهى. ربما تابعت المواد التالية، أو أحرك الريموت كونترول بين القنوات الفضائية.

اعتادت إجلال تنقلى بين حجرات البيت، دخول المطبخ، الوقوف - بالساعات - فى الشرفة، شرودى أمام برامج التليفزيون.

الطرقة طويلة، ضيقة، تفصل بين حجرتى النوم والمطبخ والحمام، وبين المكتبة الخشبية بامتداد الجدار، تتخللها نافذة ألمونيوم تطل على المنور.

ضايقتنى جلستها الدائمة فى الشرفة، تنشغل بإبرتى التريكو، والشرود

ناحية الحديقة والشارع الهادئ:

- هل هذا كل ما تقوين عليه؟

بدا أنها لم تلتقط الكلمات جيداً، فردت راحتها جوار أذنها، وحدجتنى بنظرة متسائلة.

قلت بالضيق:

- ألا يوجد فى حياتك سوى أشغال التريكو؟!

- هل يضايقك أنى أفعل شيئاً مفيداً ؟

- تلمزين على !.. كنت أعمل يومى كله حتى أقعدتنى مؤامرة حقيرة!

أعرف أنها تتجنب كل ما يثير ذكريات راحلة، خشية أن تنعكس فى كلماتى تأثراً وانفعالاً.

أعادت إجلال ما سبق أن قالته: أنا الآن حر، من حقى أن أعيش - بثيابى الداخلية - داخل الشقة الواسعة، أركب الأوتوبيس، أسير دون وجهة معينة، أتسكع فى الشوارع بلا هدف، أجلس على المقهى الذى يصادفنى، أتأمل إعلانات الطريق، أدخل فى حوار مع جارى - الذى لا أعرفه - فى القطار.

لم أكن أحدثها عن العمل وما قد أواجهه من مشكلات، ولا سألتها المشورة فى رأى يشغلنى. أكتفى - للأسئلة التى تلامس العمل - بكلمات مدغمة تشير إلى المعنى، أو لا تقول شيئاً.

عدم فهمها لطبيعة عملى أساس اختيارى لها. هى - وإن كانت لا تعرف - تكملة لوضعى الاجتماعى، واجباتها -كزوجة - تتحدد داخل البيت، لا شأن لها بمذكرات، ولا تقارير، ولا مشكلات تهمنى وحدى، وتهم العمل.

تبدل ما اعتدته من حياة. اهتزت الصورة إلى حد التشوش: رنين المنبه، قراءة عناوين الصحف، إجراء المكالمات التليفونية المهمة، التهيؤ للخروج،

تناهى صوت أحمد أنيس فى المحمول:

- جاهز يا افندم!

لا يشغلنى الانتظار، لا أمارسه. أتوقع أن ينتظرنى الآخرون. من المسموح لى أن أضيع وقتهم، وليس من حقهم أن يضيعوا وقتى. أعتذر بالقول: أنا مشغول الآن.. هل يمكن إرجاء هذا الأمر إلى وقت آخر؟.. هذه المشكلة تحتاج إلى مناقشة ليس الآن مجالها.. سأحدثك عن ملاحظاتى فى فرصة قادمة.. أملى القرار، لا أتوقعه، لا أنتظره.

لم يعد ذلك كذلك.

لم أعد أكتفى بقراءة عناوين الصحف. لم يعد أحمد أنيس يقرأ لى الصحف، ويلخص لى ما يتصور، يعرف، أنه يهمنى.

أذكر السؤال وأنا أتلفت فى حيرة:

- أين الصحف ؟

قال كمن يتوقع السؤال:

- سألخصها لسيادتك.

اعتدلت بحيث واجهته:

- لكننى أقرؤها بنفسى.

- سألخص الأخبار المهمة.

ثم وهو يربت صدره:

- هذا عملى.

أدركت أنه من الصعب أن أعيد ترتيب حياتى، الكثير الذى مضى لابد أن يتداخل مع القليل الذى يوشك على الانطفاء.

أنا دائم الخوف من شيء قادم، لا أعرف تفصيلاته، لكنه قد يحمل الخطر، وينغص أيامى القادمة، هى حالة دائمة، متجددة، لا أدرك بواعثها،

ولا احتمالاتها.

أمامى - على الطاولة الخشبية ذات العجلات - صينية، فوقها شرائح خبز محمص، وقطعة زبد، وكوب عصير، وفنجان قهوة. يرافق إفطارى قراءة عناوين الصحف، تثبت أمام العناوين التى تجذب انتباهى.

لم يعد الطريق يبتلع وقتاً طويلاً بين بيتى فى مصر الجديدة وبين الهيئة فى شارع طلعت حرب. ابتعادى عن الهيئة جعل المشوار اليومى من الماضى. لم أعد أذهب إلى الهيئة وأعود منها، بمفردى، أو بقيادة أحمد أنيس للسيارة.

عادت المرأة نبيهة إلى الخدمة فى البيت. بررت غيابها بتدخل أحمد أنيس فيما ليس من عمله. اختلط الأمر، لا تدرى إن عملت بما اعتادته، وتنفذ ما تأمر به إجلال، أم تعطى أذنها لأحمد أنيس، تلبى أوامره.

حرصت على ما أشارت به إجلال، لا يشعر حازم بأن شيئاً قد تغير، أخرج إلى الهيئة فى الصباح، أعود بعد الظهر، إذا لم أستخدم سيارة الهيئة، فلأن الطبيب نصحنى أن أمارس رياضة المشى، أستخدم سيارتى حتى لا تصدأ.

دهمنى الملل عقب انحناءة الطريق بخطوات، ربما لأنى نسيت عادة المشى. تقلنى السيارة إلى الهيئة، أو إلى الجهة التى أقصدها، تعود بى إلى البيت.

بدت شوارع وسط البلد فى صورة تختلف عما كنت أراه - خطفاً، أو عند الوقوف فى الإشارة - من نافذة السيارة.

سرت فى الشوارع بلا هدف..

أتوقف أمام الفاترينات، أتأمل المارة، والعربات، وعساكر المرور، والشرفات، والنوافذ، ولافتات المحال التجارية، وعيادات الأطباء والمحامين

والمحاسبين وشركات التصدير والاستيراد، والملصقات الإعلانية، ومناشر الغسيل، واستندات الصحف، والباعة السريحة، والنساء، لا أختار الشارع الذى أميل إليه، أظل أمشى، وأمشى، حتى أكتشف أنى ابتعدت كثيراً عن نقطة البداية. أعود ماشياً فى طرق مختصرة، تختلف - بالتأكيد - عن التى قدمت منها. ربما ناديت على تاكسى.

اكتشف أنى على مقربة من مبنى الهيئة، أو أنى أسير أمامه تماماً. أهم بالاتجاه ناحيته، يلحقنى التذكر بأنى لم أعد أتردد على المكان، لم تعد لى به صلة، الموظفون يعرفوننى جيداً، أهبهم من وقتى لتلقى المذكرات والتقارير، ومناقشة المشكلات، وإصدار الأوامر، حتى من يعجزون - بوضعهم الوظيفى - عن التردد على المركز، ألتقيهم فى زياراتى المتقاربة إلى الفروع، يتفحصون جيداً رئيس مجلس الإدارة، يحرصون على ما يشعرنى بوجودهم.

دخلت مكتبة مدبولى بميدان طلعت حرب، لم أكن فعلت ذلك من قبل، قلبت فى الكتب المصفوفة على الأرفف، وعلى الطاولة وسط المكتبة. أعدتها إلى مواضعها، تلفت - بنصف عين - وأنا أنزل الطريق - إلى البناية التى تشغل الهيئة فيها ثلاثة طوابق. الباب الخارجى المنقوش بالحديد المزخرف، الشرفات العالية، ذات الزجاج الملون، اللافتات - باسم الشركة - باستدارة الشرفة الرئيسة المطلة على الميدان.

أميل إلى الشوارع الجانبية، بدلاً من أن أمضى فى شارع طلعت حرب إلى مقر الهيئة، أرفض نظرات - قد تواجهنى - تفيض بالأسئلة والإشفاق، وربما الشماتة، أخترق الشوارع الموازية والحوارى والأزقة، رأسى يخلو من أية فكرة عن المكان الذى أتجه إليه.

تطالعنى شوارع لم أكن سرت فيها منذ فترة بعيدة، أو أنى لم أشاهدها من قبل.

فطنت إلى أن ساعات ما بين الفجر والتهيؤ للصباح، هى أنسب الأوقات للسير على طريق الكورنيش، أمشى بموازاة الشاطئ، حركة المرور فى الشارع قليلة، الضبابية تغلف المرئيات، أجاوز بنايات الهيلتون ودار المعارف والتليفزيون ووزارة الخارجية، أميل من زاوية مقهى السلطان إلى شارع فؤاد، ومنه إلى طلعت حرب، أو أعود -من الاتجاه العكسى- إلى موضع السيارة فى موقف ميدان عبد المنعم رياض.

غاب عن حياتى – لعله اختيارى – من كنت أجالسهم، نتبادل – فى الكازينو المطل على النيل – كلاماً لا صلة له بالعمل، أفيد من فائض الوقت، ولا أعانى قلته. نتنقل بين السياسة، والأغنيات الجديدة، ومباريات الكرة، وتقلبات الجو، وفوائد السير – كل صباح – على رصيف الكورنيش.

التقت عيوننا، وأنا أصعد الدرجات المفضية إلى داخل جروبى، قبالة القصر الجمهورى. تحرك فى جلسته إلى جوار الطاولة، المنزوية فى ركن الفراندا الواسعة، تناثر أمامها طاولات تعلوها شماسى ملونة، خالية.

يغيظنى، يقتلنى، ما ألاقيه من إهمال وتجاهل، ممن كانوا – قبل أن أترك منصبى – يظهرون ولاءهم، ويعدون بسرعة تنفيذ أوامرى، يحزننى أن أظل فى المقهى، بينما كل شيء حولى يشغى بالصخب.

ما من شيء أستطيع عمله إلا أن أبقى فى البيت، لا أغادره، أكتفى بترقب أوضاع الهيئة بعد أن جلس أحمد أنيس فى مقعدى.

لم أعد حتى أتذوق الطعام، لا يشغلنى نوعه، وما إذا كان قد أجيد طهيه.

قال لى الصحفى ميرغنى توفيق إن تليفونه- بعد أن ترك العمل – فقد سخونته. أدركت المعنى بعد أن قلت المكالمات التى تصلنى، إلى حد الندرة، إجلال تتكلم فى التليفون الموجود فى حجرة نومها، هو ما أفعله فى تليفون

حجرة نومى، تليفون حجرة المكتب - الذى لم يكن يهدأ عن الرنين - صار صامتاً.

شعرت أنى بحاجة إلى من يجالسنى، يسمعنى وأنصت له. أقسى المشاعر عندما تجد نفسك وحيداً، ولا أحد يحتاج إليك، لا محاولة للمناقشة، ولا للأخذ والرد، لا حتى مجرد إبداء التعاطف.

اقتصرت المناقشات فى جروبى حول الجماعات الدينية والمتفجرات وعمليات الاختطاف وحوادث القطارات وزحام الشوارع وافتقاد وجود مواقف السيارات وظاهرة مجاذيب الشوارع والبذاءات التى يتراشق بها الناس، والعداء فى التصرفات.

قال ميرغنى توفيق:

- لم يعد المجتمع - كما كان من قبل - مقيداً ,الانفتاح بدّل كل شيء.

أردف لنظرتى المتسائلة:

- هذا عهد الشركات الانفتاحية والبنوك الخاصة ومكاتب الاستيراد والتصدير والمكاتب الاستشارية الأجنبية.

نزع نظارته، مسحها بطرف الكرافتة، ثم أعادها إلى موضعها:

- هذا عهد تحقيق الطموح.

تعمدت فى صوتى نبرة إدانة:

- هذا عهد الفساد.

وهو يحاول أن يخفى ابتسامته بضم شفتيه:

- أنت لم تقل هذا الرأى أيام السلطة؟

رشقته بنظرة غاضبة:

- لم أكن فى أى يوم من السلطة.

ظل فى هدوئه:

– هى ليست مقصورة على القيادات السياسية.

وتظاهر بالجدية:

– لو أنك قلت هذه الآراء وأنت على رأس الهيئة، ربما كانت قد تغيرت أشياء.

التقطت أذنى همسة الرجل:

– هذا رضا شهبون، كان رئيساً للهيئة.

وعبرت تشويحة يده عما ضايقنى.

أذهلنى أن ميرغنى توفيق تحاشانى حين التقينا فى شارع سعد زغلول. لم يحاول الحديث إلى، ولا حتى الاكتفاء بتحيتى.

أين الود الذى كان يظهره لى؟

فى انحناءة الطريق إلى ميدان التحرير التقيت أمانى شكر الله، تحاذت سيارتينا تماماً. كان الطريق متوقفاً. أومأت برأسى، أهملت المفاجأة فى ملامحها.

تصنعت الدعابة فى صوتى:

– كيف تسير الهيئة بدونى؟

هزت كتفيها:

– كل شيء على ما يرام!

وضع الجرسون صينية الشاى على الطاولة، رافق ما فعل بنظرة محدقة، كأنه يفتش عن شيء فى داخلى، أو يريد أن يبلغنى بما سكت عن قوله.

أزمعت أن أضع من حولى جداراً غير مرئى، أنصت وأتكلم وأناقش وأبتسم وأضحك، لكن ليس إلى حد المباسطة، لا يرى محدثى الجدار، وإن شعر به، فيحرص على إيقاع محدد، لا يجاوزه.

علىّ أن أقود قاربى وحيداً، بلا مجدافين، ولا شراع، ولا ما يدلنى على

السباحة الآمنة فى أمواج عالية.

هل أغرق؟

●●●

اعتدت السير فى الشوارع بمفردى، لا حراس، ولا أصدقاء، أتباطأ فى السير، أتأمل واجهات المحال.

هأنا ذا أخلو إلى نفسى. لم أعرف هذا الأمر منذ سنوات بعيدة، حتى الأوقات التى كنت أغلق فيها باب مكتبى أمام الزوار لم أكن بمفردى، أحمد أنيس موجود دائماً، ينصح، ويوجه، ويشير، ويقضى بما يرد صواباً.

أجلس أمام التليفزيون، أشاهد قليلاً، وأشرد غالباً، وأتثاءب، أنزل إلى حديقة الميريلاند، أسير فى التقاطعات داخل الحديقة حتى يدركنى التعب، أجلس على أحد المقاعد، تهيؤاً لجولة ثانية، أو أعود إلى البيت، أبحث عما يشغلنى، أو أنام.

بقائى فى البيت هو ما أطمئن إليه، لا أغادره إلا لضرورة، يرافقنى حازم، أو عبد الولى البواب.

صرخت إجلال لرؤية الكلب فى يدى، اشتريته من دكان فى شارع توفيق:

– عجزت عن إصدار الأوامر.. تريد التعويض بكلب!

-٥-

هل أجاد حصارى بتصورات غير حقيقية؟

صدقت -بالفعل - أنى لا أصلح للخطابة، ولا أميل إلى المجتمعات، ولا أتحدث فى اللقاءات العامة، لا يجذبنى ما قد يثير الآخرين، وأعانى التردد فى الاختيار، وفى اتخاذ القرار، والمجازفة. لم أحاول السؤال، ولا مناقشة التصرفات التى جعلتنى ذلك الرجل فعلاً.

أدركت أنى يجب أن أخوض معركتى بنفسى.

انفتح الباب تلقائيا، فتراجعت بصدرى إلى الوراء. اعتدت أن أدير المقبض، وأدخل.

ماذا فعل أحمد أنيس؟

لم تكن البوابة الداخلية موجودة فى موضعها لصق الباب، قضى الحارس القديم - ارتدى يونيفورم - على ارتباكى، بالإشارة ناحية الباب:

- سيادتك من هنا.

تمنيت لو أن وقفتى لم تطل فى انتظار المصعد، لا أتلفت، فلا أواجه حصار النظرات.

تباينت نظرات الموظفين والسعاة المتناثرين على جانبى الصالة الواسعة، ما بين التساؤل والفضول والإشفاق. ميزت ابتسامة خبيثة فى وجه شاحب الملامح، أفسح لى صاحبه الطريق.

لم ألتق أحمد شافعى، حتى مكتبه الأبنوسى غاب عن مكانه. اخترت أحمد أنيس بدلاً منه. أعرف أنه موظف جيد، وكان أحمد أنيس يلجأ إليه فى أعمال كثيرة. هل نقله إلى وظيفة أخرى، أو فصله ؟

لا شيء تغير: الباب الخشبى، المبطن بالقطيفة السماوية، له إطار من المسامير المطلية بالذهب، على الجدران مرايات هائلة تزيدها اتساعاً، فرشت

– بحجم معظم الأرضية – سجادة حمراء، من الموكيت المنفوش، على جانبيه زهور ملونة.

قام لرؤيتى فى مدخل الحجرة. اتجه ناحيتى قبل أن أتحرك إلى الداخل. صافحنى بمودة، وأشار إلى الكرسى القريب من المكتب.

أهملت ضيقى من رجل الأمن، اكتفى – عند رؤيتى – بانحناءة سريعة، لم يفرد طوله، ويضع راحة يده إلى جانب صدغه، هذا هو ما ألفته بمجرد أن أدخل من الباب الرئيس.

كنت أعرف أنى – ذات يوم – لن أصبح قوياً، سأفقد قوتى، لكننى تصورت امتداد القوة فى من صنعتهم، من عبّدت لهم الطريق ليقيموا بنايات حياتهم، لكنهم حاولوا هدم ما كنت بنيته لنفسى.

طالعتنى الحجرة الواسعة: الأبواب والنوافذ ذات النقوش البارزة، الزجاج المتداخل الألوان، الأرفف الخشبية رصت فوقها كتب وأوراق وأيقونات صغيرة، الأرض افترشتها سجادة تغلب عليها النقوش الحمراء، فوقها كنبتان متقابلتان، يتخللهما طاولات وكراس، والمكتب الضخم فى الوسط، من الأبنوس والصدف، وقبالة الباب مرآة هائلة تغطى معظم مساحة الجدار، وتدلت من السقف نجفة كريستال هائلة.

لم تعد حجرة المكتب إلى ما كانت عليه، ما أتذكره. تغيرت مواضع الدواليب والطاولات والمناضد والكراسى. صفت فوق الأرفف كتب ومجلدات، وتكومت على الطاولات أوراق كبيرة، مطوية، قدرت أنها لخرائط وبيانات طويلة، وأُسْندت إلى الجدران أوراق كبيرة مطوية أخرى، أرخيت سجادة صلاة – لم تكن موجودة – على الكنبة وسط الصالة، فطنت إلى أنه يعلن عن أدائه الصلاة فى مواعيدها .

هذا هو الكرسى الذى ظل أحمد أنيس يحلم بالجلوس عليه، يدير، يأمر،

يقرأ المذكرات، يوقع التأشيرات، يحظى بالمكانة المتميزة.

أعرف أنه لم يعد يشكل على حياتى الخطر الذى كان يمثله قبل أن أترك المؤسسة. تهديداته لأنى كنت أرأس المؤسسة، فى داخلها، الآن أنا على الهامش، تتساوى كفتا القوة بينى وبينه، يملك كل منا القدرة على إيذاء الآخر، التساوى حتى فى الوسائل.

– كيف حالك؟

غابت الابتسامة المعتذرة ، حلت – بدلاً منها – ابتسامة تشى بالثقة، أو بالاستهزاء.

وأنا أعانى ما يقتلنى:

– إذا كان مجرد الحياة خيراً، فأنا بخير!

أحسست أنى لا أقوى على النظر فى عينيه، هما عينان تفيضان باللؤم والخسة، عينان متوحشتان.

حين زرت أحمد أنيس فى مكتبه – للمرة الأولى – بدا رأسه مدفوساً فى أكداس الملفات والأوراق المليئة بالمستندات والوثائق والمذكرات والدعاوى والدفوع وتقديرات الضرائب والأحكام القضائية.

عرفت ظروفه جيداً. لم أكن أعرف حتى اسمه، نبهتنى إليه كلمات ماجد الحسينى رئيس قسم الصادر والوارد، يحيل إليه ما تأخر عن أدائه بقية الموظفين، ينجزه فى الموعد الذى يحدده الحسينى. لم يخف تأثره ـ ودهشته – حين تكلم أحمد أنيس – عن الوقت الذى يملكه، إن استغله، فسيبدل حياته. سألت، وتقصيت، وراجعت ملفه الوظيفى، زاره فى بيته من لامسوا ظروفه الشخصية، سكناه مع أمه فى إمبابة، ثبات علاقته بأقاربه فى شبين القناطر، حرصه على استكمال دراسته فى التعليم المفتوح حتى بكالوريوس التجارة، تفضيله التنقل سيراً بين البيت والمؤسسة.

أطلت الوقوف على باب الحجرة، حتى رفع أحمد أنيس رأسه من الأوراق والملفات :

- أفندم يا سعادة البك .

تأملت الرجل الذى كنت أعبره فى نظراتى: القامة الصغيرة، المدكوكة، الجبهة الواسعة، الوجنتين البارزتين، الأسنان التى اختلط فيها السواد والصفرة (صارت بيضاء بعلاج الأطباء)، والبشرة الدهنية دائمة التفصد بالعرق، وإن لم يعد يجرى عليها بظهر يده، ثمة علب مناديل ورقية تتناثر على قطع الأثاث. كان يضع منديلاً فى جيب الجاكتة، ويحيط معصمه بساعة مذهبة، وفى يده خاتم، ويحمل بين إصبعيه مبسماً مذهباً.

سعدت للذهول - وربما الخوف - الذى نطق فى ملامحه.

لم أتردد على مكتبه، ولا أى مكان فى المبنى. المرئيات ثابتة منذ الباب الخارجى، وصعودى السلمات العشر، ثم أميل إلى اليمين، والسير فى الطرقة المفروشة بالمشاية الحمراء الطويلة، على جانبيها لوحات أصلية، وإضاءة خافتة، مبروك الساعى - فى نهاية الطرقة - يسرع إلى فتح الباب.

بدا أحمد أنيس مرتبكاً، لا يدرى إن كان عليه أن يظل فى وقفته، أم يقبل ناحيتى.

أشرت إليه، فلم يغادر موضعه. أهملت ما ينبغى على رئيس العمل أن يحرص عليه، يستدعى مرءوسيه ولا يذهب إليهم، تأتيه أخبارهم، ويضع جداراً غير مرئى بينهم وبينه.

اتجهت إليه بنظرة مشجعة:

- أحيى إخلاصك.

- هذا هو عملى.

فاجأته بالسؤال:

– هل المرتب يكفيك؟

وهو يغالب الارتباك:

– أدبّر نفسى.

– ما رأيك فى عمل بعد الظهر؟

وشى صوته بارتباكه:

– سيادتك..

ثم فى استسلام:

– أنت الرئيس، ومن حقك..

قاطعته:

– لا شأن لهذا العمل برئاستى، إنه عمل آخر.. إضافى.

أوكلت إليه تسيير الأمور، أداء الموظفين مهامهم، مراجعة الأرقام والأذونات والاستمارات، دفع العمل بأقصى طاقة.

تعمدت ألا أشرح له بواعث اختيارى، عليه أن يعرف وينفذ، وإن لم يكن من حقه أن يسألنى، ولا أن يناقش اختيارى.

لجأت إليه لأن وقتى ضاق عن استيعاب مسئولياتى. قدم لى من وقته بدلاً من وقتى الذى لم يكن بوسعى أن أضيعه.

تبدلت المواضع، يجلس هو وراء المكتب، وأجلس أنا أمامه. التبدل يفرض ما يصعب تخيله، الأوامر والتأشيرات والتوقيعات، لم أعد مسئولاً عن ذلك كله، هى مسئوليته وحده.

هذا الذى يجيد السير على السلك، ويحسن إخراج الأرانب الحية من الحقيبة الفارغة، ويتقن ألعاب الحواة.

متى بدأ الانشغال بإزاحتى؟ ماذا دبّر وفعل كى يجلس على كرسى الرئيس؟ ينفرد بالجلوس فى هذه الحجرة؟

على مكتبه دوسيهات عليها كلمات " سرى للغاية "، و " هام "، و " عاجل للعرض على الوزير ".

كتمت ضيقى لحرصه على إبداء الانشغال بالرد على مكالمات التليفون، والتوقيع علي الأوراق، وإطلاق الأوامر للموظفين والسعاة .

قام من موضعه. أزاح ستارة النافذة، تدفق الضوء إلى الحجرة، بدت المرئيات فى غير الصورة التى اعتدتها، الستائر مسدلة، والإضاءة الجانبية تملأ المكان.

خلا وجهه من أثر انفعال وهو يتحدث بكلمات متباطئة. قال إن نشاط الهيئة شمل كل ما يصلح للتصدير والاستيراد، قال إن الهيئة ستزيد من عملياتها خارج مصر، جاوزت الدول العربية إلى دول كثيرة فى العالم، تضاعفت العمليات، لا تقتصر على منتجات محددة، قال إنه تنازل عن بدل الجلسات والأرباح لصندوق تكافل الموظفين، وإنه زاد فى منح الموظفين وحوافزهم ومكافآتهم، حتى المصاعد الثلاثة أباح استخدامها للعاملين، لم يعد يقصر استخدامه على مصعد محدد، وقال إن الهيئة ستدخل أجهزة إنذار حديثة، وتكييفاً مركزياً، وأبواباً تفتح تلقائياً.

ووشى صوته باعتزاز:

– كانت الحاجة تقول إن يدى خضراء.

دفع لى بورقة، فطنت أنها نسخة تكرر تصويرها. التقطت اسم حسين رشدى، فى سياق كلمات كثيرة، وأرقام، جرى تحته بثلاثة خطوط.

دعك أنفه بظهر يده:

– لنا وقف بناحية شبراخيت، تبينت – وأنا أراجع شجرة العائلة – أنى قريب لحسين رشدى باشا رئيس وزراء مصر أيام ثورة ١٩١٩ .. هل تذكره؟

قرأت ما يدور فى عينيه:

– سعد زغلول هو قائد الثورة .

أومأ برأسه:

– لولا معاونة حسين رشدى للثورة ما أتيح لها الاستمرار.

وسرى فى صوته انفعال:

– كان هو رئيس الوزراء الذى يملك الضغط على سلطات الاحتلال.

– لهذا أقالوه؟

قال فى انفعاله:

– هو الذى استقال حتى يكشف نياتهم.

استطرد كأنه يتعمد نقل الحديث:

– نسب أبى يمتد إلى حسين رشدى، ونسب حسين رشدى يمتد إلى الخليفة العثمانى!

اقتحمنى شعور بأنى أتعرف إليه للمرة الأولى. لم أجد فيه أحمد أنيس الذى أسأله، وألقى عليه أوامرى، وأوبخه. يهز رأسه بالموافقة، أو يهمس بمطالبه.

إن أذنت له بالكلام أمامى، أعاد رواية الحكايات بما يناقض ما أعرفه، الملامح والجزئيات والمنمنمات الصغيرة، ما يبدو عادياً، ولا يلفت النظر. يلتقط الخيط من أوله، يتشابك بخيوط أخرى فى أثناء الحكى، لكنه يحسن التقاطه دائماً، لا يفلت الخيط حتى يبلغ نهايته.

روى كل ما يتعلق بحياته، منذ مولده إلى يوم شغله الوظيفة: متى ولد؟ أين؟ من أبوه وأمه؟ المدارس التى أُلحق بها، والكلية التى تخرج فيها؟ ظروفه المادية، علاقاته العاطفية، ميله إلى السهر من عدمه، إن كان يتعاطى الخمر والمكيفات أم لا.

لم يغفل حتى التفاصيل غير المهمة، أو التى قد لا تكون كذلك.

تصاعد فى داخلى ما يشبه الغثيان وهو يروى أولى تجاربه الجنسية. لمحه مخبر يلوط فى ولد داخل خرابة. فاجأه المخبر بأن فصل ما بين فخذيه وإليتى الولد، جذبه من قضيبه دون أن يأبه بتألمه، ولا صرخاته المتوسلة. تمنى - بتحديق النظرات الشامتة - لو أنه مات!

لمّح أنه لا يلتقط الثمار وحده. عليه أن يشارك فيها من يعملون تحت إمرته. هم يفيدونه، فلا بد أن يفيدهم. الفوائد متبادلة، وأول الخيط يجب أن يمتد إلى نهايته، إذا انقطع فلن يؤدى غرضاً.

دون أن يجاوز الهمس:

- سيادتك تعرف أنى لا آكل وحدى!

- ماذا تقصد ؟

- نحسب ما هو مطلوب على خمسة أو أكثر.

لم يعد الوقت يسرقنى، أجاد أحمد أنيس سيطرته عليه.

تباطأ فى الرد على تليفونه الخاص. نظر إلى الرقم على الجهاز. أخذ السماعة بيد ملهوفة:

- حنان عثمان؟

وهو يقرن التفاتته نحوى بالهرش فى مؤخرة رأسه:

- سأتصل بك، عندى ضيوف!

هل بدّلت صداقتها؟ هل بدّلت بى أحمد أنيس؟ هل لهانى بها ، ليستعيدها بعد أن أخذ الكرسى؟!

بدت - حين رأيتها للمرة الأولى - مختلفة تماماً عما تصورته فى كلمات أحمد أنيس ,قامة أقرب إلى القصر والنحافة، بينما لم أتصور لها ملامح محددة. نظراتها المحدقة دفعتنى إلى تأملها: قامة طويلة، وجسد ممتلئ،

متناسق التكوين، وشعر فاحم السواد ,مثل هالة حول وجهها ,وعينين واسعتين كعينى قطة، وأنف دقيق، يعلو شفتين أجادت تحديدهما بالحمرة، وبعثت ساقاها المدملجتان فى نفسى شعوراً كأنه النشوة.

كان الفستان الأزرق ذو النقط البيضاء، محبوكاً على جسدها، فأظهر التكويرات والاستدارات. حدست أنها اختارت جورباً أسود، مزيناً بنقوش، لتلفت الأنظار إلى ساقيها.

لاحظت نظرتى إلى الجزء المكشوف من فخذيها ما بين الفستان والجورب. دارت ابتسامة وهى تسحب ذيل الفستان –بعفوية– إلى ما تحت الركبتين.

قال أحمد أنيس لحنان:

– هذه الاستاكوزا من الإناث .. لحمها أطعم!

ثم وهو يغمز بعينه :

– لحم الأنثى أطعم فى البحر أيضاً!

قلت دون تدبر للمعنى:

– اكتف بالجندوفلى.

لا أذكر متى، ولا كيف، بدأت أصحبه إلى مجالسى الخاصة وسهراتى؟، ربما لأنه كان يحرص على الصمت ونفى الذات، فلا يتدخل بسؤال، أو بملاحظة، أو ربما تسعفه البديهة – تكرر الأمر فيما بعد – فيروى نكتة، كأنى الكرسى الذى يجلس عليه، يقبل عدم الالتفات والإهمال، والإهانة أحياناً، لا يبدى تذمراً ولا رفضا، لا تشغله التزامات من أى نوع.

قلت فى نبرة موبخة:

– أنت تخاطب سيدة محترمة!

– هل أخطأت؟

وأنا أعبر بيدى:

– هذا التظارف الذى لا معنى له!

لم أكن قد فككت خيمتى، لكنه تصرف – فى الأيام الأخيرة – باعتبار أن ذلك هو ما حدث بالفعل. أستعيد الأسئلة والملاحظات والتصرفات، أضع ما كان فى رؤية الزمن الحالى – كان يعرف –شارك – بالوشاية – فى تقريب لحظة القتل.

هو الذى أتى بها، زودها بتوجيهاته، وما ينبغى عليها فعله، وإن حاول إيهامى أنها خضعت لتأثيرى، وجدت فى شخصيتى ما يجذبها.

حاولت استعادة صورة الجسد تحت الفستان. تنزع كل ثيابها، تترك لى إنزال السروال الصغير – كورقة الشجر – من ساقيها، تنحدر يدى من ظهرها إلى خصرها، ثم إلى ردفها، فساقاها، أنزع الحذاء والجورب. أمسد الساق العارية بيدى، إلى ثنية الفخذ، تتسلل أصابعى من ثنية السروال، تتحسس الشفتان مواضع جسدها، تحيط الذراعان بصدرها، تتشابك السيقان، المضاجعة تأتى متأخرة، أسمى ما يسبقها " الشيء لزوم الشىء".

دفعتنى بيدها:

– أرهقتنى بالشيء ولزومه!

بنت الكلب!

ألم تكن عارية طيلة بقائها فى البيت، لا تبقى إلا على ورقة الشجر الصغيرة أسفل بطنها؟!

ألم ألعب فى هذا الجسد حتى أنهكنى التعب؟!

وهو يعيد سماعة التليفون:

– كنت أخدمها من أجلك.

وربت صدره:

- الآن .. أنا أخدمها من أجلى.

ومال برأسه إلى الخلف:

- مثلها - كما تعرف - لا تصادق إلا من يمتلك الفائدة!

واتسعت فى وجهه ابتسامة تشفّ:

- أنا أعطى لها ما هو أهم من المال.

لعله التقطها من رصيف الكورنيش، هو الموضع الذى تسير فيه مثيلاتها.

الهيئة مزدحمة بالمستشارين، يقلمون أظافرهم، ويتبادلون كلام الدردشة. أحيا الرغبة فى العمل.

لماذا لا يجعلنى واحداً من مستشاريه؟

قلت: إن الانسحاب من الحياة العامة أمر صعب، لكنه حتمى. وقلت : إن المرء مطالب بأن يختار وقت الضوء ووقت الظل فى حياته. وقلت : إن الاعتزال قبل الأوان لا معنى له، وتأخير الاعتزال سذاجة تعلو إلى مستوى السخف. وقلت: لكل زمن رجاله.

أومأت له أنى على استعداد لأن أفعل كل ما يطلبه منه، كل ما يوافق عليه ويرضيه، حتى يزكى عودتى إلى العمل.

تجاهل إيماءاتى، واكتفى بنظرة هادئة، محايدة.

أدركت أنه يبحث لنفسه عن طريق خاصة، لا يشاركه السير فيها أحد.

قال فى لهجة أثارنى ما شابها من ندية:

- ستجدنى طوال عمرى فى خدمة سيادتك.

ماذا يعنى بالخدمة؟ هل يرفض عرضى؟ هل طلبت منه - من قبل - أى شيء؟ هل هى محاولة لتسريب الإهانة؟

نهضت مستأذناً.

علا صوته – وهو فى كرسيه – بكلمات تستبقينى، استعاد الكلمات التى تخلو من الحرارة، وطريقة إلقائها، من زمن وقوفه جانب مكتبى .

أنا الآن الرجل الذى كان، وأحمد أنيس هو الرجل الذى صار. ما كنت أمتلكه، ما كان فى قبضتى، لم يعد كذلك. غاب، أو تلاشى.

لم يكن للخسارة موضعاً فى حياته. يجيد اقتناص الفرص، والدخول فى مغامرات البيع والشراء، والصفقات التى لا تخيب، المناقصات والمزايدات والتوكيلات والشركات المتعددة الجنسيات، كل الأمور تسير حسب القوانين والأنظمة واللوائح، المناقصات والمزايدات والتوكيلات والشركات المتعددة الجنسيات.

دخل الساعى مبروك. وقف فى هيئة من لديه كلام يقوله، لم يعن حتى بأن ينظر ناحيتى، الكلب!

– الأستاذ محمود البولاقى يظن أنى أبلغ سيادتك بآرائه فى أحوال العمل داخل المؤسسة.

واجهه أحمد أنيس بعينين ناريتين:

– ولماذا يظن ؟.. لو أنك أخفيت عنى ما تراه أو تسمعه فسأدمرك!

تساءلت – بينى وبين نفسى – هل يصفى حسابات قديمة؟

هو واحد من الذين أكلوا من صحنى، ثم بصقوا فيه. تناسوا الخيرات والجمائل والخوف والمداهنة والتملق، كأنهم نزعوا جلودهم، فبدوا فى أجساد لم يسبق له رؤيتها.

وهو يقلب أوراقاً فى يده:

– قرأت كلماتك فى الجريدة.

وحدجنى بنظرة متسائلة:

– من تقصد بالرجل الأول؟

فطنت إلى معنى نظرته:

– لا أقصد رجلاً بالتحديد.

استطردت فيما يشبه الهمس:
- أظن أن ترتيب منصبك لم يكن الأول فى البروتوكول.
كرمش الضيق ملامح وجهه:
- دعك من البروتوكول. أنا أعرف وأنت تعرف أنك تقصدنى.
هذا ما أخفقت فى تعلمه منه: يتخذ موقف الهجوم، يجد فى الدفاع أذى لصاحبه.
قهرنى الانفعال:
- أنت لا تريد أن تظل كما أنت.
صنعته، تمرد علىّ، أشبه بما فعلته جالاتيا مع بيجماليون الذى صنعها.
وهو يغتصب ابتسامة:
- أين أنا؟
- فى الرقم اثنين، أنت الرجل الثانى، لكنك تريد الرقم واحد.
- فى الحقيقة أنى كنت الرقم واحد.. وهذا ما أنا عليه الآن.
الحروف والكلمات والجمل تتقافز من حولى، يصعب أن أشكل منها معنى أطمئن إليه. حدست أن القوى المتصارعة فى داخلى تكفى لتدمير الكون.
وهو يتأمل ما لم أتبينه فى الحجرة:
- تعرف أن انتظار الصيد يحتاج - بعد إلقاء السنارة - إلى الصبر.
وكور قبضته:
- من حقى أن أحصد ثمرة صبرى.
- صبرك على ماذا؟
- حقى!.. كنت أنا الفعل، وكنت أنت الواجهة!
عاد بنظراته إلى الأوراق أمامه. لاحظت أنه لا يحاول القراءة، مجرد أن ينهى اللقاء.
تهيأت للانصراف:

إذا كانت الرائحة كريهة، فلا ترفض شمها، وتسد أنفك. الاختناق الذى قد يصيبك بالموت، سيجبرك على إفساح رئتيك للهواء، بصرف النظر عن رداءته. المثالية لا تعنى التصلب والتشدد، لا تعنى المواقف الحادة والباترة، فهى قد ترتد إلى المرء بعكس ما يأمله من نتائج.

سرت فى صوته نبرة تحذير:

- يجب أن نتعلم ما لم نقرأه فى الكتب، ولا تعرفه المعاملات التجارية!

وعبر عن المعنى بهزة من إصبعه:

- لابد من أن تضع حاجزاً بينك وبين مرءوسيك، إن لم تحرص عليه ضاعت هيبتك!

اعتدت أن أظل فى مكتبى حتى أطمئن إلى اكتمال الحضور فى قاعة الاجتماعات. يسبقنى أحمد أنيس إلى دفع الباب الموصل بين المكتب والقاعة، ويعلو صوته:

- الأستاذ رضا شهبون.

أكتفى بهزة رأس، وبنظرة تمسح الوجوه المتطلعة. أشير للوقوف بالجلوس، وأجلس.

جعلت لنفسى - بإلحاح من أحمد أنيس - موعداً، ساعتين كل مساء فى بهو فندق سميراميس، ألتقى فيها أصدقائى ومعارفى، ومن يقصدوننى فى خدمات.

ينبهنى إلى ضرورة المرور - بين فترة وأخرى - فى أقسام المؤسسة، يسبقنى بخطوات مهرولة، وعينين تتفحصان حتى وقفة الموظفين وراء مكاتبهم بالبدل الكاملة.

شدد أن أضع نفسى فى إطار من الهيبة والوقار. أمسك حتى عن

الضحك لنكتة، أو عبارة سانجة، فلا تهتز صورتى أمام الأعين التى تلتقط ما يسئ، ما يهز صورتى، أو يضعها فى غير إطارها الصحيح.

بدلت بالسجاير السيجار الهافانى، أحاذر حتى لا يزيد وزنى، أقصر طعامي على الخضراوات وحبات قليلة من الفاكهة، أحرص على حمامات السونا والجاكوزى والبخار.

سيطر على مشاعرى وتصرفاتى، وما ينبغى أن أقوله، أقلب الرؤية فى ذهنى، أطمئن إلى صوابها، يهبنى إنصاته، يقول فى لهجة محايدة: جميل، ولكن. أستغرب من نفسى أنى أبدل ما كان قد استقر فى ذهنى تماماً، ما بدا هو الرأى الصحيح.

خضعت تماماً لآرائه وملاحظاته واقتراحاته، هى الإطار الذى يصعب – حتى لو أردت – أن أغادره.

الطيبة والشر ليسا فى المطلق، لا يوجد إنسان طيب تماماً، ولا شرير تماماً، هى درجات من الطيبة أو الشر. لا أحدَ يستعصى على الإغواء، إذا ضغطنا على نقطة ضعفه ,فسنرى العجب.

أعد ملفات لكل المتعاملين مع المؤسسة، كل التفصيلات ذات القيمة، والتى لا أهمية لها، قطع الفسيفساء الصغيرة تصنع اللوحة الكاملة، ما يبدو تافها قد ينطوى على معان تستحق الالتفات. سجل القوائم على الكومبيوتر، مديرى الشركات، ورجال الأعمال، ورؤساء الهيئات التجارية. حرص أن يلخص الأنباء والتقارير الإعلامية، يتيح لنفسه متابعة الأحداث.

له مصادره التى تمده بالمعلومات. يفيد من علاقاته المتشابكة فى التعرف إلى ما قد أجهله شخصياً، أو تغييب صورته الحقيقية، يوزع أخبار نشاطى على الصحف ووكالات الأنباء والقنوات الفضائية، يتأكد من تلقى دور الصحف هداياى ورسائل التهنئة والتعزية، يحرص أن تظل الحقائب – بعد

كل رحلة إلى الخارج - مغلقة، لا يفتحها إلا فى وجودى، يقرر من تذهب إليه هداياى، ومن لا يستحقها. الصداقة ليست حالة دائمة، والرجوع إلى قوائم الأصدقاء بالإضافة والحذف تحتمه طبيعة العمل، هدية صغيرة تكسب الفهم والود فى البداية، وتكسب الخدمة التى أطلبها فى الخطوة التالية، أوقع على شيكات تبرع بقيمتها للمدارس، ودور المسنين، والجوامع، والملاجئ. أتلقى دعوات من سفارات ومؤسسات حكومية وأهلية وأندية ومعارض فنية وعروض موسيقية. الجنازات وسرادقات العزاء وحفلات عقد القران والزفاف، فرصة للمجاملات الاجتماعية، يدفعنى للحرص عليها، يضيف إلى أهميتها - فى رأيه - أنها لا تكلف شيئاً، مجرد مصافحة، وكلمات مدغمة لا تعنى شيئاً محدداً. ربما صحبنى إلى أماكن أتردد فى الذهاب إليها. حتى المناسبات التى لا أحضرها، يرسل هو باقات الورود، أو برقيات التعزية.

صارت لى - بمبادرات منه - صداقات مع وزراء فى الحكومة، وسابقين، وقيادات سياسية، ورجال أعمال، ورؤساء بنوك، وسفراء عرب وأجانب، وقضاة، وصحفيين، وأعضاء فى مجلس الشعب، وفنانين، وفنانات، وموظفين كبار.

تصرفاته تميل إلى السيطرة. لا أذكر الكلمات أو مرادف لها فى سياق كلماته، لكنها تنعكس فى صيغة الأوامر التى تسم ملاحظاته وتوجيهاته ونصائحه، أنت تحتاج إلى مساعدتى فانتبه، لا يتيح الاستفسارات، ولا الأسئلة، ولا محاولة الفهم.

هو يملى ما يجب أن أقوله أمام الناس، ومتى ينبغى أن أحتمى بالصمت. حتى الثياب صارت من اختياره، لكل مناسبة ما يمكن ارتداؤه، حتى الجينز الذى لا أذكر أنى ارتديته، نصحنى أن أحضر به ندوة عن

التقدم الاقتصادى فى كلية التجارة، يحب الشباب أن يتحدثوا إلى من يقارب تفكيرهم.

كنت أحرص أن أبتسم، بمناسبة، وبلا مناسبة. أصول العمل تدفعك إلى فعل الابتسام ,لا أهمية إن بادلك الضيف ابتسامة مماثلة، أم وضع على وجهه قناعاً من الجهامة، ينفرك من الحياة كلها؟!

نصح أن أظل بعيداً عن كل ما قد يأتى بالشبهات، وضعى الوظيفى يقضى بأن أجعله هو الذى يتولى -باسمى - عقد الصفقات خارج العمل، هو الذى يتصدر المشهد، ينشغل باللقاءات والاجتماعات وكتابة البيانات والرسائل.

الوظيفة العليا تعويض، أو امتداد مناسب، للأيام القاسية، تشحب، أو تغيب، الصور التى مثلت حياته.

وثق صلاته بالوزراء وكبار موظفى الدولة بما يضمن رعاية مصالحه.يحرص على حضور الحفلات والمناسبات الاجتماعية، قد يلجأ إلى تزكية تليفونية، بطاقة، هدية لا تخلو من معنى. لكى نحصل على ما نريده من مكانة، فلابد أن نقترب من السلطة، نلامسها، نلاصقها. صار له أصدقاؤه من الوزراء الحاليين والسابقين، وكبار موظفى الدولة، ورجال الأعمال.

حين وصفه رشيد مصيلحى - ابن قريته - أنه قد أصبح سفير طوخ طنبشا فى القاهرة، ابتسم فى صمت وسعادة، هو يسعى لتعيين أبنائهم فى المصالح الحكومية، إلحاق الأولاد بالمدارس والوظائف، إنصاف من تخطته الترقية، تيسير العلاج فى الخارج، السفر فى بعثات تعليمية.

كان يتخلص من حياته الماضية، يتطهر منها، يحرص على صداقة الشخصيات النافذة. يثق أنه كلما زادت صداقاته، زادت قدرته على الكسب،

يوحى لمحدثه أن مصادره السرية تمده بالمعلومات، وعلاقاته جيدة بالشخصيات المهمة، يجيد الاتصال بالقيادات العليا، تأكيد ولائه لهم، يقبل على حياة جديدة تغيب تفصيلاتها، لكنها تحيله إنساناً آخر، له عاداته المختلفة، الجديدة.

قال لى عن رئيس بنك المستقبل:

– ثق أن كل شيء وكل إنسان قابل للشراء!

أومأت ليستكمل ما يقوله.

– المهم أن نجد الوسيلة التى تغريه بالقبول!

حدجته بنبرة مستفهمة:

– الكلام يستمد حجته من قوة قائله، المال هو هذه القوة.

ازدردت ريقى لأزيل الجفاف فى حلقى:

– اعرض عليه ما يقنعه بإغلاق فمه!

وهو يتظاهر بالحيرة:

– لا تحدثنى عن المال، فالرجل مستور!

ثم غمز بعينه:

– فى الدنيا مغريات ألذ من المال!

إجلال دائمة الاعتذار عن الخروج. صحبنى أحمد أنيس إلى الأندية والفنادق والمطاعم الفاخرة والكازينوهات والمسارح ودور السينما. حفلات الاستقبال ومآدب الغداء وحفلات الكوكتيل والليونز والروتارى والأندية الرياضية والاجتماعية. جلسنا فى يوتوبيا والصفوة وجاردينيا وبالم هيلز. الموائد المنفصلة، والسجادات الوثيرة، والأضواء الخافتة. تناول مشروبات لم يكن عرفها من قبل: القهوة التركية، القهوة الأمريكية، الأكسبرسو، الكباتشينو، النسكافيه، لم يعد يثيره تطاير سدادة زجاجة الشمبانيا، انتتر

- فى المرة الأولى - عندما علت الفرقعة، بتدوير السدادة، وانبثقت الرغوة البيضاء. ردد مسميات شانيل وكريستيان ديور ومدام روشا وجيفنشى وبيير كاردان وكارفن ونينا ريتشى وباكو رابان وإيف سان لوران.

وضع كل الخيوط بين يديه. أجاد - بما لا يحتمله عمل الهيئة - توزيع أعوانه ومرءوسيه فى الوزارات والإدارات وهيئات الدولة ومعسكرات الجيش وأقسام الشرطة. حتى الأندية والهيئات الأهلية والجامعات، تناثر فيها أرصاد وعيون، ينقلون له - فى تقارير مختصرة، ومطولة - ما تلتقطه آذانهم وأعينهم من المناقشات والهمسات والشائعات، ينقلون حتى تعبيرات الأيدى والنظرات التى تعنى شيئاً لا تنطقه الأفواه.

لم تقتصر عيونه على موظفيه. أوكل إلى عيون من النساء مهام الملاحظة والمراقبة وكتابة التقارير.

– ٧ –

جاءنى صوتها عبر التليفون. أعرفه: النبرة الرائقة، وإن سرى فيها ما يشبه مغالبة النوم.

كنت قد اتخذت قرارى – فى اللحظة نفسها – أن أرفع سماعة التليفون، وأكلمها. هى تعرف ماذا حدث، وكيف احتل أحمد أنيس مقعدى، تعرف كل شيء. لماذا لا أقفز على الملابسات وأكلمها؟، لا أريد استمرار ما كان، فهو لم يبدأ، ولا بد أن ينتهى بإرادة أحمد أنيس. مجرد التصور أنى قد أعرف منها ما لا أعرفه، الأوراق التى ربما حرص أحمد أنيس على إخفائها.

– أنا شهبون.

– واضح.

– فهم أم سخرية؟

دنوت بالسماعة من فمى، وقاومت الارتباك:

– هل تأتين إلى شقة الدقى؟

هى ما نصح به أحمد أنيس: إذا امتلكنا شقة، فلن تعانى الحرج فى لقاءاتكما.

غاظتنى الجدية فى نبرتها:

– أخشى من أفكارك الخبيثة ؟

علا صوتى:

– لست غريبة عن الشقة.

– الظروف الآن تختلف.

أهملت المشاعر المتناقضة فى داخلى:

– هل نلتقى فى جروبى أو فى لوبى شيراتون الجزيرة؟

أتت الكلمات متثاقلة:

– خمس دقائق فقط. مشاغلى كثيرة.

داخلنى غيظ – ولعله غضب – من لهجتها الآمرة، كأن أحمد أنيس قد أحسن تعليمها. تخلصت منه، لم يعد فى حياتى.

هل أتخلص منها ؟

فى المرة التالية، ظل رنين التليفون، ثم توقف. تكرر الأمر، فعرفت أنها ترفض استقبال مكالماتى، يظهر الرقم، فلا تحاول رفع السماعة حتى ينقطع الاتصال.

أغلقت السماعة، وشعور يتملكنى أنى لن ألتقيها ثانية.

●●●

جذب أحمد أنيس حنان من ساعدها، فأوقفها عن الرقص:

– أنت ترقصين بخصرك، الرقص بالجسد كله.

تصورت أن ملامسة ساقها لساقى حنان مصادفة، لكننى أردت المعنى الذى لم أفهمه، بمداعبة إصبع قدمها. تسللت نظرتى أسفل الطاولة، تبينت أنها نزعت الحذاء بما يحدد المعنى. ظللت ساكناً فى جلستى، أعانى الارتباك، والخوف من أن يلحظ أحد ما يجرى تحت الطاولة: المداعبة، والجرأة، والاقتحام.

لاحظت أنها تحرص على إغوائى فى كل كلمة وتصرف وإيماءة، حتى الثياب تختار ما يلفت انتباهى، تتأمل – بنظراتها المتسائلة – تأثيرات ما تفعل على ملامحى. يطل من عينيها غنج، أشعر بنشوة لملامسة ساقى ساقها المدملجة، مداعبة قدمها لقدمى، لكننى تظاهرت بالهدوء، وواصلت الكلام.

خايلت عينى. شغلت تفكيرى فى أثناء العمل، لا أستطيع التركيز فى أى تقارير أو مذكرات، أتركها لأحمد أنيس، يقرأها جيداً، ثم يبدى رأيه.

هل أحببتها؟ هل تحولت العلاقة - التى تصورت أنها طارئة - إلى حب، يشغلنى إن كان سيتاح له الاستمرار، أم أن نهايته فى انعطافة الطريق؟

●●●

قال أحمد أنيس :

- أى المنشطات تتعاطاها؟

أربكنى السؤال. قلت:

- لا أتعاطى مكيفات من أى نوع!

- تريد أن توهمنى بفتوتك..

ومد يده فى راحتى بحبة صغيرة:

- إذا شعرت بفائدتها، فسأهبك جرعات كاملة.

غمز بعينه ,وأردف:

- الفياجرا ألغت تقدم السن، ابن الأربعين يضيف خبرته إلى عافية ابن العشرين.

قاومت الغضب:

- لم أبلغ بعد مرحلة الاحتياج إلى اختراعاتك.

ورمقته بنظرة مستنكرة:

- أنا لا أفكر فى تعاطى الفياجرا.

ساءتنى اللهفة التى قدم بها عرضه، مثلما ساءنى العرض نفسه.

لم يكن يأذن لنفسه أن يجاوز حياتى داخل المكتب وما حوله، البيت، إجلال وحازم، حياتى الشخصية التى لا يقترب منها، ما حدث هذه المرة هو اقتحام صعد بالسخونة إلى أذنى.

عرف الكثير من أسرارى الشخصية، لكننى حرصت أن أبعده عن أسرار أسرتى. ربما كان لإجلال دورها فى أن تنتهى خطواته عند باب

الفيلا، لم تكن تخفى كراهيتها له، وكان يدرك هذه الكراهية.

لماذا يتصور أنى أعانى ارتباكاً فى حياتى الجنسية؟

لم تكن العلاقات الجنسية - فى أوضاع أتصورها - تترك ذهنى معظم الأوقات، إذا تحدثت إلى فتاة، أو امرأة، حلا لى أن أجردها - بخيالى - من ثيابها - ربما أطلت التفكير فى علاقة ما، مع فتاة أرسم ملامحها من ممثلة، أو راقصة، أو امرأة رأيتها فى الشارع. أعتز بقدرتى على الانتصاب، حتى بعد أن تتحقق الرجفة.

لاحظت أنى أعانى احتدام الرغبة وقت الظهيرة، عقب تناول الغداء. يرافق ميلى إلى استرخاء القيلولة ميل مماثل إلى العناق الجنسى. تعرف إجلال الموعد، تشى كلماتها وتصرفاتها بالموافقة.

لم أحاول مناقشة الأمر، ولا الصلة بين همود الجسد وفورانه.

تجولت عيناى بين وجهها وصدرها وبطنها، استقرتا بين ساقيها. ما أراه يصدنى عن التفكير فى لمسها.

كيف أضاجعها؟

لم تزايل الابتسامة الداعية شفتيها.

- ألن تخلعى؟

وأشرت إلى بلوزتها.

عقدت ما بين حاجبيها:

- ما تريده تحت الجوبة.

قلت فى صوت ذاهل:

- لسنا حيوانين، هناك أشياء أخرى.

وهى ترفع يديها كالمستسلمة:

- افعل ما تحبه.

مررت بيدين تعانيان الارتباك، تعبران عما أعانيه فى داخلى، على ما لامسته من جسدها، عنقها، صدرها، بطنها، ردفيها. احتويت كعب قدمها براحة مترفقة، ملت على الأصابع ، قبلتها إصبعاً إصبعاً وأنا مغمض العينين. ضمت ساقيها، فتوقفت. ضربت صدرى بقبضة يد متخاذلة.

زاد هياجى بما لم أتصوره فى نفسى، اجتذبتها بعنف، أحطتها بذراعين أرعشهما الانفعال. أخطأت شفتاى المشتعلتان شفتيها، جاستا فى الجبهة والعينين والأنف والفم، حتى الأذنين امتصصتهما بنهم.

لا أعرف كيف ألقيت نفسى فوقها، كأنى استكنت لما عجزت عن مقاومته، حاولت - بركبتى - أن أباعد ما بين ساقيها، تملصت لتدفعنى عنها، خمشتنى بأظافر يديها، دفعتنى بقدميها الحافيتين. دفعتها على السرير، وارتميت فوقها. تملصت من ذراعى. قاومت بما لم أكن أتصوره.

لم أواجه عمرى هذه المهانة، عمق من تأثيرها أنها صدرت عن أحمد أنيس، هو الذى دبر توريطى فى هذا الموقف.

طالت أوقات تعبير أحمد أنيس عن هذه المشاعر، فظلت فى داخلى، وإن أخفقت فى التعبير عنها، ذوت، تفتتت، تلاشت. داهمنى إحساس بالبواخ، وأن ما أفعله مجرد تمثيلية سخيفة، طرفها الثانى يرفض المشاركة.

قلت، مدفوعاً بجرأة لم أعهدها فى نفسى:

- هل تثقين أنك امرأة؟

وهى تمضغ ما لم أتبينه فى فمها:

- مثلما تثق أنك رجل!

أبعدتها عنى بيد غاضبة. ناديت على أحمد أنيس. أعرف أنه يقف خارج الحجرة، لا يترك موضعه، حتى ينفتح الباب.

تبدل الحال فى زيارتها التالية.

ترتدى بنطلوناً من الجينز. شغلنى السؤال وأنا أتأمله على ردفيها: كيف استطاعت ارتداءه؟

نترت الحذاء من قدميها. رقصت بكل جسدها، تأودت، تثنت، تمايلت، طارت فى الهواء، ملأت الحجرة بذراعيها، وساقيها، وصدرها، ورقصاتها المجنونة، وما أسعفها به ذهنها من الأغنيات.

تأملتها وهى تخلع ثيابها، قطعة قطعة، وتدور أمامى. أكتفى بتأملها، بالتحديق فيها، ملاحظة أصابعها وهى تنزع ملابسها، لم يعد إلا قميص نوم من الساتان الأسود، يشف عن جسدها.

قلبت حقيبتها: بطاقة شخصية، زجاجة عطر، علبة كريم مستديرة، قلم شفاه، مفكرة صغيرة، قلم حبر جاف رخيص. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها، تأملت وجهها فيها لحظات، وزمت شفتيها، ثم أعادت المرآة إلى داخل الحقيبة.

أطفأت مفتاح النور بيد، واجتذبتها باليد الثانية. احتضنتها بساعدى، وملت بها على السرير. تضع عطراً يستفزنى لعناقها.

قلت مدفوعاً بجرأتى الطارئة:

– أتمنى أن ترقص فخذاى بين ساقيك!

أثارنى تلويها على السرير، مثل السمكة فى المشنة.

لاحظت السهولة التى جرت بها العلاقة، كأن المرأة عرفت ما هو المطلوب منها تماماً. أزالت، بتصرفات محسوبة – وإن وسمتها بالعفوية – ما قد أعانيه من حرج أو توتر.

ما المعنى الذى أقنعها به أحمد أنيس قبل أن تغلق باب الحجرة؟

تبينت أنها امرأة ذات خبرة، تتظاهر بالاستجابة، وإن شردت فى أشياء تشغلها. فطنت إلى قلة خبرتى، جهلى بالكثير مما ينبغى فعله، تعلمت –

فيما بعد - ضرورة التهيئة النفسية، قبل أن أبدأ المضاجعة.

قالت وهى تعدل ملابسها:

- هل يظل الفندق مكاناً للقائنا؟

- ليست مشكلة؟!

وهى تدس قدمها فى الحذاء:

- من هم فى مكانتك لهم أكثر من شقة!

لم أصارح أحمد أنيس بما أريده، اكتفيت بالتلميح، فجاءنى بعقد الشقة - ثالث يوم - لأوقعه.

●●●

ألفت سخونة جسدها، وأن أفسح لها الطريق إلى داخل الشقة، أدير المفتاح فى الباب، أتراجع بصدرى كى تدخل، تماهيها رائحة عطر لا تبدله.

معظم شاغلى البناية من الأطباء والمهندسين والمحاسبين والمحامين وشركات التجارة الصغيرة.

نصيحة أحمد أنيس أن أبدو فى هيئة المنطوى على نفسه ، امتثلت لتحذيره بألا أقيم علاقة صداقة مع أحد من سكان العمارة. حتى التحية بالكلمات، أو بالمصافحة، أو بالإيماءة، استبدلت بها النظرة المتجهة إلى الأمام، أو الشاردة، رد الفعل أتوقعه، أتمثله، يعقب التحية بطاقة تعارف، دعوة إلى زيارة. ثمة من يعتبر الجيرة هى الصداقة، أسوأ ما فيها الزيارات التى ربما لا يسبقها موعد.

تأتى فى موعدها الثابت، الثامنة مساء الثلاثاء كل أسبوع. أتنبه للطرقات الخافتة بأطراف الأظافر، أفتح لها الباب، تهمس: مساء الخير، أتبعها إلى حجرة النوم، هى الثالثة إلى اليسار، تطل من الواجهة على الشارع الرئيسى، ومن الجانب على شارع خلفى صغير. على يمين المدخل

دولاب كبير بمساحة الجدار، يقابله – لصق الجدار –سرير، غطته ملاءة مزينة بورود، إلى جانبه تسريحة، تعلوها مرآة بيضاوية، تناثر فوقها أباجورة وقوارير عطر وأمشاط وصندوق مناديل ورقية وأجندة صغيرة، وفى الوسط طاولة مستطيلة يتقابل حولها كرسيا فوتيل.

ألحظ نترها للحذاء بمجرد أن تدخل الحجرة، تسير كالمتقافزة – على قدميها الحافيتين – إلى النافذة المطلة على شارع قصر العينى ، تتأكد من إغلاق الستارة المخملية جيداً، وتطفئ النور. تحل الظلمة تماماً، فى أوقات النهار، كما فى أوقات الليل. تعود – بظهرها – إلى جوار الطاولة والكرسيين، بحركة سريعة، تنزع ثوبها، تقذف به إلى الكرسى، أو إلى الأرض.

يذهلنى تجردها العفوى لملابسها، كأنها تؤدى عملاً، تفعل ما تؤمر بفعله.

تدير نفسها فتواجهنى.

أشعر أن جسدى قد استيقظ تماماً، فح بالشهوة، جاوز إرادتى، ومحاولة إسكاته، سيطر على مشاعرى ما يشبه الجنون. مددت يدى حول وسطها، اجتذبتها ناحيتى، حتى لامس أنفى شعرها، انثنت ركبتاها، احتضنتها بامتداد خصرها، ظلت واقفة، حاولت أن أميل بشفتى على وجهها لأقبلها، اصطدمت الشفتان بعنقها. دلكت راحتى أصابع قدمها، اعتصرتها، انزلقت من باطن القدم إلى ربلة الساق، مسدتها بيد نشوانة، ضغطت على ساقيها، أزحتهما بما يتيح لى بلوغ أسفل البطن.

أطبقت شفتيها لتكتم الألم، لكنهما انفرجتا باللهاث والألم واللذة.

لم نعد نمهد بكلمات، ولا رقصات، ولا أغنيات، إنما نبدأ العناق مباشرة، تتخلل العناق عبارات لا تتصل باستغراق اللحظة، تتداخل الأسئلة والأجوبة

والملاحظات والمعلومات والأسرار التى يشغلنى التعرف عليها.

الطريقة التى كانت تحرك بها جسدها، أثارتنى، كل ما فى جسدها يرقص: رأسها، عيناها، صدرها، بطنها، ساقاها، حتى قدميها كانتا تتنقلان على إيقاع الموسيقا. أهمس بكلمات الغزل، تهمس بالاستجابة.

اجتذبنى إليها أنها كانت تجوس فى الغابة بخطوات فاهمة، تسبقنى وألاحقها، تنبهنى إلى ما لم أكن أعرفه، أو ما لم أفطن له.

أذنت لها - بإيماءة - أن تفتح محفظتى، تأخذ ما تريد من النقود.

تمنت - فى لحظات مؤانسة - أن تسكن فى واحدة من المدن الجديدة: فيلا من طابقين، أو ثلاثة، تمتد حولها الخضرة، وتطل على حمام سباحة، وتقف أمامها سيارة أحدث طراز.

صحبتها- بإيعاز من أحمد أنيس - إلى الفنادق والكازينوهات والأندية والمطاعم الكبيرة. ركبنا يختى، هو الذى أشرف على بنائه فى ورش القزق، فى رحلات بحرية إلى خارج البوغاز.

قلت بلهجة متواطئة:

- فى المرة القادمة احرصى على جواز السفر.. هل لديك جواز سفر؟

استعدت ما لقنه لى أحمد أنيس:

- ربما واصلنا السير إلى بيروت.

شهقت:

- بيروت؟!

قلت بصوتى كلمات أحمد أنيس:

- اليخت يصل إلى أبعد ميناء.

لم أضع تصورات حول ما إذا كانت علاقتنا الطارئة ستتحول إلى علاقة دائمة.

صار وجودها فى حياتى - دون أن أتنبه - أمراً لا غنى عنه.

●●●

نظرت فى المرآة الصغيرة، وهى تعتذر أنها تعجلت وضع الماكياج. هزت كتفها، فسقطت حمالة القميص إلى ما تحت الصدر، ظهر الثدى متكوراً، تضيف الحلمة البنية إلى حسنه.

لم تعد تخرج ثيابها الداخلية من حقيبة يدها. تركت فى الدولاب ما ترتديه فى زياراتها التالية.

- إذا لم يكن من المتاح أن أظل فى هذه الشقة، فإنى أتمنى شقة قريبة من إمبابة.. فى الزمالك أو المهندسين.

أضافت فى لهجة متصعبة:

- المواصلات متعبة من إمبابة إلى هنا.

وحملت صوتها رنة سخط:

- فى خدمتك سائق وسيارة.. ليس أمامى إلا سيارات المشروع.

وعبّرت بضم أصابعها:

- علبة سردين بشرية!

اختلطت مشاعرى، لم أستطع تبين ماذا تريد.

وهى تدس قدمها فى الحذاء:

- لماذا لا تدعونى إلى فندق خمس نجوم؟

استطردت فى نبرة تحريضية:

- الفنادق الكبيرة لا تسأل روادها أين يذهبون.

يثيرنى أنها تناقشنى فى ندية، كأنها تملك السؤال والأخذ والرد والاعتراض، لحظات تتلو عناقى لها، غنجها وتأوهاتها، امتزاج عرق

الجسدين، محاولتها إقناعى أنها تسلمنى جسدها بدافع الحب وحده.

اكتفيت بالقول:

– دعينا نفكر.

لم يكن السؤال شغلنى بحيث أعددت الإجابة. قلص أحمد أنيس ملامحه فى استياء:

– بنت الملعونة!

وكتم ضحكة منفعلة:

– إنها تريد شقة مستقلة.

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة سخرية:

– إذا اشترينا لها هذه الشقة فلن تكون الرجل الوحيد الذى تستقبله.

– ماذا أقول لها؟

– سأفكر فى الأمر بما يرضيك.. واترك النسيان للزمن.

أزمعت التخلص من هذه العلاقة التى تصغّرنى، وتذلّنى، علاقة لا معنى لها إلا أن تحرجنى، وتضايقنى، وتثيرنى.

– ما رأيك فى الزواج العرفى ؟

التمعت عيناها بنظرة توجس:

– أفضل الزواج على يد المأذون.

– لى – كما تعلمين – زوجة وابن.

– ولى أسرة يهمها أمرى.

– لن يعرفوا أمر الزواج.

استطردت فى نبرة ملاينة:

– تصرف مؤقت يثبته المأذون – فيما بعد – بعقد شرعى!

– زواجنا لا يتم بغير العقد الشرعى!

ورفعت عينين حذرتين:

– إذا وافقت على الزواج منك.. هل تقيم معى أو مع ابنك وأمه؟

– حازم كبر، وإجلال لها بيتها وإيرادها الثابت.

– أنا مثل الفريك.

– هل تريدين تطليقها؟

– هذا شأنك!

●●●

حين أتأخر فى العودة، أفتح الباب برفق، وأترك النور مطفأ حتى لا تصحو إجلال.

قلت لأحمد أنيس:

– إن احتجت لقضاء الليل بعيداً عن البيت.. ماذا أقول لإجلال؟

وهو يغمز بعينه:

– متابعة سير العمل فى فروع المؤسسة تحتاج إلى قضاء الليل فى المدن الأخرى؟

تنحنحت:

– ربما سافرت هذا الأسبوع خارج القاهرة.

اكتفت إجلال بنظرة متسائلة.

وأنا أتشاغل بدس الأوراق فى الحقيبة الجلدية الصغيرة:

– مشكلات فى ميناء السويس لابد أن أحلها بنفسى.

ظلت صامتة، وإن لم تفارقها النظرة المتسائلة.

قلت إن عملى يقتضى أن أسافر إلى الإسكندرية مرة كل أسبوع ، أتسلم واردات من الدائرة الجمركية.

لم أجد فى نظراتها ما يشى بتوجس، أو استرابة، أو ميلاً للكذب.



لا أدرى إن كانت إجلال قد عرفت بأمر حنان.

قالت وهى تقرأ الجريدة:

– تقرفنى علاقة المرأة والرجل التى تقوم على الجنس!

عانيت ارتباكاً، فلم أسأل إن كانت تعلق على خبر فى جريدة ، أم أنها تلمّح إلى حكايتى الجديدة؟

– ٨ –

أدرت المكيف، ودسست جسدى عارياً داخل اللحاف، هذه هى الكيفية التى يقضى بها أبطال الأفلام الأمريكية نومهم.

أصحو متأخراً، أطيل البقاء فى السرير، أتباطأ فى حلاقة ذقنى، والوقوف تحت الدش الساخن، عادة لا أبدلها فى صيف ولا شتاء، لا أتعجل تناول الإفطار.

إذا أحسست بالتعب، طلبت فيمتلئ البانيو بالماء والشامبو، إلى قرب الحافة، أتمدد فى داخل البانيو، تسرى الراحة داخلى، ربما تمددت على الطاولة الخشبية، أسلم جسدى للماء الدافئ ، وأصابع التدليك ، والخبطات المترفقة بجانب اليدين على الكتفين والظهر والعمود الفقرى ، والضغطات حول العنق، وفوق الكتفين، أطيل التمدد فى الجاكوزى ليذيب الدهن تحت الجلد (دلنى أحمد أنيس على إذابة أملاح زهرة الأوركيه فى ماء الجاكوزى، المعتدل الحرارة)، أشرب الخمر دون أن أبلغ حد الإدمان.

تعلمت ما ينبغى تعلمه: العناية بالبشرة، وبالحمام الساخن، والرشاقة والرياضة اليومية، ولو مجرد المشى على طريق الكورنيش ، وانتظام مواعيد تناول الطعام. كيف أتناول الطعام بالشوكة والمعلقة والسكين، أسلم أصابعى لعاملة المانيكير والباديكير، تعتنى بأظافرى، وتزيل الجلد الزائد والميت، أحتفظ بخفوت صوتى ، أعرف ما يردده أحمد أنيس أمامى من أسماء مشاهير السياسة والفن والأدب ، أحسن التعامل مع المرأة .

أطيل الوقوف أمام المرآة، أتفحص ملامحى جيداً، ما يحتاج إلى رعاية. أشذّب شاربى، أستخدم عطراً هادئ الرائحة، أمسّد جانبى شعر رأسى. أحرص على العناية بمظهرى، لا أهمل حتى المنديل الهرمى فى جيب الجاكتة العلوى .

عقب أحمد أنيس على اعترافى، بأنى أريد أن أقلد ما أشاهده:

- لا تفعل شيئاً دون أن تبلغنى! لا تفعل شيئاً دون أن أوافق عليه!

ملاحظاته لا تنتهى: فى ملابسى، وسيرى، والمفردات التى أستعملها، فى تناولى الطعام، وطريقة الجلوس.

حتى جلساتى الخاصة يسترق السمع إليها من وراء الباب، أو يتظاهر بالحاجة إلى شيء، ليلتقط من الكلام ما يبنى عليه.

وضع على الطاولة زجاجة زيت زيتون. ظل صامتاً، ينتظر سؤالى عن المعنى. لم أسأل، واكتفيت بنظرة محايدة.

وشى صوته بخيبة أمل:

- زيت الزيتون مهم لمن هم فى عمرنا.

وعدّ بأصابعه:

- يفيد فى طراوة البشرة وخفض ضغط الدم وتيبس العظام والسكر وتأخر ظهور التجاعيد ومنع الـ..

وأدار أصابعه إلى جانب رأسه بما يعكس معني سخيفاً.

لم تغادر النظرة المحايدة عينى.

التفت ناحيته فى استياء:

- فقدان الذاكرة أو خرف؟!

بدا عليه ارتباك، تحركت شفتاه يحاول أن ينطق، لكنهما ظلتا مفتوحتين، ساكنتين.

حل الصمت بيننا.

افترت شفتاه عن ابتسامة محرضة:

- ملامحك مجهدة.. لا ترهق نفسك.. إن شعرت بالتعب لا تغادر البيت.

تصورت أنه سيدعونى - ذات يوم - إلى البقاء فى البيت، يعرض - عبر التليفون - آراءه واقتراحاته، وما اتخذه من قرارات. أبدى ملاحظاتى

بالقبول، أو الرفض.

فاجأته بالقول:

– هل تلتقيان من ورائى؟

أشار إلى نفسه بعصبية:

– سيادتك .. انا الذى عرفتك بها .

– منذ ذلك اليوم لم يعد لك صلة بها.

– إذا رأيت ألا ألتقى بها، فهذا ما سأفعله!

كان يطيل الانتظار حتى يرى سيارتى مقبلة. تتوالى كلماته المرحبة من قبل أن ينفتح باب السيارة.

وأنا أتجه ناحية باب المصعد، يسبقنى، ويلحق بى، رجال الأمن، قال أحمد أنيس:

– هذا هو المصعد.

التفت ناحية الموضع الذى أشار إليه.

وهو يسبقنى إلى المصعد:

– أعددناه، فلا يستقله سواك.

أطلت تأمل المرايا المحيطة، والنقوش، والإضاءة العالية، والمروحة الصغيرة فى زاوية السقف.

أغلق الباب، فلم يعد سوانا. اتجه بنظراته إلى الأرض وهو يفرك يديه:

– لا يصح أن يشاركك المصعد بقية الموظفين!

ربما اطمأن إلى جلسة السعاة أمام مكتبى: اليونيفورم، والذقن الحليقة، وتلبية نداء الجرس.

يضغط على النور الأحمر عند وصوله مكتبى، يعرف الموظفون والزوار أنه يعرض علىّ أوراقاً يجب ألا يراها أحد.

أعرف أن النور الأحمر لا يعنى الانشغال بأمر يتصل بالعمل، هو - فى الأغلب - انشغال بما لا يتصل بالعمل.

يثيرنى أنى تحولت إلى تابع للرجل الذى اخترته ليكون تابعى.

أحنى رأسه بابتسامة صغيرة:

- ينقصنا دخول البرلمان؟

- من نحن؟

- سعادتكم.

- لم تشغلنى هذه المسألة.

- يجب أن تشغلنا.

وعد بأصابعه:

- النفوذ الأوسع.. المكانة الاجتماعية الأكبر.. الحصانة.. وغيرها كثير.

أغمضت عيني، وشردت فى الفراغ:

- دعنى أفكر.

وقاومت الحيرة:

- أنت تضعنى فى قلب معمعة لم أعد نفسى لها.

وهو يفرك يديه:

- النصر لنا بإذن الله.

دنا بوجهه، وأحاط فمه براحة يده:

- جلست هذا الصباح فى كافيه كوستا إلى رجل ماضيه طويل مع الانتخابات.

وعلا صوته متباهياً:

- هو الذى أسقط مرشح السعديين فى انتخابات ١٩٥٠

- لم أكن ولدت بعد.

- الرجل فى السبعين، عاصر الانتخابات منذ حكومة حزب الشعب.
- هل يبدل الصناديق إن لم تكن لصالحى؟
- بل سيضمن وضع البطاقات المؤيدة لنا داخل الصناديق.
أردف فى تأكيد:
- هذه مهمته.
سحب ورقاً من أمامه. كتب أرقاما، جمع وطرح وضرب وقسم، رفع رأسه، ثم مال على الورق يقرأ ما كتب:
- عدد العاملين فى الهيئة حوالى ٢٠ ألف عامل. سنضع لكل عامل مرتب شهر قبل الانتخابات، ومرتب شهر بعد الفوز، مكافأة يسيل لها أى لعاب.
وأنا ألعق شفتى:
- مبلغ كبير!
أكسب صوته نبرة استعراضية:
- من حق رئيس العمل أن يكافئ مرءوسيه.
بدت أعوام الهيئة كأنها يوم واحد متصل، لا يستوقفنى يوم محدد، ولا حادثة بالذات، لا تستوقفنى حتى ملامح من كانوا معى إلا كأطياف متباعدة.
لا أعرف إلا القليل مما يفعله، حتى ما يعد له يحرص على إخفائه.
تبينت فى نفسى عدم القدرة على اتخاذ القرار. أقلب الأمر، أفكر فى ما ينبغى فعله، تطول الساعات دون أن أصل إلى نتيجة ما.
هذه المشكلات التافهة، إذا لم يوجد من يعالجها، فإنها تتحول إلى مشكلات يصعب حلها. أنت لم تحجز تذكرة الطائرة فى موعدها، كيف تسافر؟ لم تفطن إلى موعد استشارة الطبيب، هل تطمئن إلى حالتك

المرضية؟ سهوت عن موعد مناقصة أو مزايدة، هل ينتظرنا المزايدون؟
.مشكلات كثيرة، تحتاج إلى من يعنى بها، وربما تبدو تافهة.

يصبر على إخفاقاتى المتوالية، وأسئلتى، وهو يعلّمنى - دون أن يوضح ما يفعل - كيف أدير الحوار، وكيف أتلقى الأسئلة، وأجيب عليها، حتى أطيل، أو أوجز، أو أصمت إن لم يكن ثمة ما يقال.

لم أكن أتصل بشخص ما، جهة ما، إلا إذا مهد لاتصالى بكلمات تضعنى فى الهيبة اللازمة.

إحساس يشبه اللذة، يتابع من خلاله الصراع والتقاتل بين رؤساء الإدارات، دون أن يشير بتدخلى. لا شأن لى بمن يسقط، أو يخسر حتى نفسه. يدين نشوء الخلاف وإن التذ باستمراره.

قلت :

- ماذا تعنى بقولك: اختلافهم رحمة؟!

- عندما يختلفون تضمن ولاءهم جميعاً!

ولاح على شفتيه طيف ابتسامة:

- يختلفون فيختفى التآمر.

- لكنهم زملاؤك.

- وهم متآمرون، ويجب إيقاف تآمرهم!

ثم وهو يهرش مؤخرة رأسه:

- هناك شعارات موضعها الكتب، الحياة المعاشة شيء آخر!

يدخل حجرة المكتب فى اللحظة التى أهم فيها بالضغط على الديكتافون، كأنه يحدس - على البعد - متى أريد أن أكلمه.

لا يأذن لأحد بدخول مكتبى إلا إذا قرأ المذكرة التى سيعرضها جيداً. يدون ملاحظات، قبل أن يتيح لقائى، إن داخله التوجس لحق بالزائر، يقف

بحيث أتابع حركة شفتيه بالكلمات الصامتة، الإشارات، الإيماءات. تقاطع كلماتى، تبدل الخطأ الذى تصوره بكلمات أخرى تهب المعنى الذى يريده.

تمتد يده إلى الديكتافون - لا أستعمله -يطلب من السكرتيرة إيناس مهنا ألا تأذن لأحد بالدخول، يهمل نظراتى المتحيرة، المتسائلة عن معنى التصرف.

لم أعد أفهم حقيقة مشاعرى؟ لماذا أقبل، ولماذا أرفض؟

حتى طلبه من إيناس مهنا موظفة السكرتارية أن تسلمه البوستة، لم أناقشه، ولعلى ارتحت إلى ما فعل، تتحرك فى الغرفة، يبعث ردفاها النيران فى داخلى، أحاول كتمها، أتظاهر باللامبالاة، أتكلم فيما يفد إلى خاطرى، لا تفكير، لا محاولة حتى لاجتذابها، الارتباك يفرض سيطرته تماماً.

عرفت خطواته طريقها بين القاعات والردهات والطوابق والغرف ، لا يستوقفه سؤال ولا نظرة محدقة . ألف المكان فهو يتحرك بعفوية واضحة .

أحمد أنيس أول من أستقبله من موظفى الشركة، آخر من يودعنى قبل أن تقلنى السيارة إلى البيت.

أحمد أنيس يدير كل شيء، يأمر، يراجع قرارات الترقية والمنح والخصم والإجازات، لا يبدى ميلاً فأراجعه، أضيق بتصرفاته، لكننى عاجز عن الفعل.

قال إنه يعتز بأنه قد جعل حياته كلها للعمل، لا يذكر أنه قد حصل على إجازة إلا إذا أخضعه المرض، ثم شكا من أن إدارة المؤسسة ترفض أن تحتسب له الشهادة العالية التى حصل عليها أثناء الخدمة.

●●●

صارت أوامره أكثر نفاذاً من تعليماتى وأوامرى .

يحرص على حضور المؤتمرات. إذا لم يكن فى المؤتمر ما يغرى

بالمشاركة، ففى الحقيبة التى يحصل عليها فائدة.

يشارك - نيابة عنى - فى حفلات عقد القران والزفاف وأعياد الميلاد، وفى الجنازات والمآتم.

همس بقدرتى فى أن أحصل على أية موظفة يريدها. النساء اللائى يعملن فى المؤسسة لا يترقين إلا إذا مررن على مكتبى، ثم على أماكن تخصنى، أحددها.

قال أحمد أنيس:

- صدقنى.. الخطأ والخطيئة هما الأصل. وقال: إذا كان الهواء فاسداً، فنحن لا نملك إلا أن نستنشقه أو نموت!، وقال: من الصعب على ضمير المرء أن يظل صاحياً فى وقت ماتت فيه الضمائر!، وقال: علينا أن ننظر إلى الإنسان الخيّر باعتباره أمنية.، وقال: اللؤلؤة لا تساوى شيئاً إذا ظلت حبيسة صدفة فى قاع البحر!، وقال: المهم حجم الثروة وليس كيف تحققت !

حين أومأت إلى حنان والخيانة الزوجية والتوقعات، قال أحمد أنيس إن الخيانة الزوجية ليست تصرفاً طارئاً، ولا هو من التصرفات النادرة، ولعلها بدأت مع فكرة الزواج نفسها، البواعث متعددة، تبدأ بالفضول وتنتهى بالملل:

- هل تتصور أن المدام ترضى عن الأيام المتشابهة؟

- ماذا تقصد؟

- المدام فاضلة، ومحترمة.. تصورى أنها تدرك المعانى السلبية فى نفوسنا نحن الرجال!

خمن من صمتى استجابتى لقوله، أضاف فى لهجة متحمسة:

- اختصر فاديم كل علاقات كازانوفا ودون جوان فى زواجه من أجمل ثلاث نساء: كاترين دينيف وجين فوندا وبريجيت باردو.

واتسعت الابتسامة فى وجهه:

– ليتنا نأخذ من الشيعة زواج المتعة!

واغتصب ابتسامة:

– المرأة – كما تعرف – أشد انضباطاً من الرجل.

فطنت إلى أنه لا يجد الكلمات التى يريد أن يعبر بها.

أردف فى ابتسامته الشاحبة:

– الوفاء طبع فى المرأة، أما الرجل فيأمل فى عفوها!

واسترق ناحيتى نظرة متفحصة، ربما ليمتحن أثر كلماته.

مرة وحيدة، ثرت عليه، وطردته. كنت قد صحبت إجلال إلى حفل زفاف فى الدقى. قال لى أحمد أنيس فى نبرة توبيخ:

_لا تدخل مطعماً فاخراً وفى يدك ساندوتش!

قفزت صورته وهو يظهر التهيب، ويده ممدودة بلفافة من ورق الصحف:

– فضلة خيركم.. فطير مشلتت من البلد!

هو يعرف السومون فيميه والكافيار والاستاكوزا والباتون ساليه والكرواسون والساليزون. تناسى البتاو والعيش المرحرح والعيش الشمسى.

هل يعرف أنى أخافه، وأكرهه؟



حازم، كيف أبدو أمامه؟ كيف ينظر لى؟

لاحظت فى وجهه طلوع شارب، ولاحظت تغيراً فى صوته، داخلته بحة.

كل ما فعلته كان من أجله ، لكى يصبح فى الحياة التى هو عليها الآن.

أين الصواب، وأين الخطأ؟

قال أحمد أنيس:

– أنت تفعل ذلك من أجله؟

دون أن أرفع رأسى عن الأوراق:

- أعرف.. لكن سيعرف ذلك؟ هل يحترم أباه!

- أولادنا يعرفون أن كل ما نفعله من أجلهم؟

- حتى الخطأ؟!

قال أحمد أنيس:

- الخطأ نسبي.. ما تراه خطأ قد يراه غيرك عين الصواب!

- ٩ -

شيء يتحرك فى داخلى، يدفعنى إلى العنف فى الكلمات والتصرفات، أحاول كتم الباعث، فلا أستطيع، لا أعرف لماذا، ولا كيف، أجاوز مشاعرى السلبية. أعرف أن ما أفعله هو خطأ، وأنه من العيب أن يظل ذلك الخطأ، ليس ثمة ما يدعو إلى العيب والعنف والقسوة.

أعانى شعوراً بأن من حولى يتحينون الفرص للانقضاض، حتى هؤلاء الذين زرعتهم، وتعهدتهم بالرعاية ، وبدأت أشجارهم فى طرح الثمار:

– كل ما وضعوه على مائدتى من هذه الثمار كان مسموماً.

وتنهدت:

– لو لم أنتبه ربما فارقت الحياة من زمن!

أفتش حجرة النوم – قبل أن أنام – جيداً أبحث عن عدسة، جهاز تسجيل، أو تنصت، ما يدعو إلى التوجس.

صحوت على موجة هائلة طوتنى فى داخلها، لا أذكر ما سبق اللحظة، ولا ماذا كان الكابوس، وإن ظللت على السرير لأسترد نفسى.

أمليت على إجلال رقم تليفون أحمد أنيس.

علا حاجباها بالدهشة:

– لم يعد مدير مكتبك.

فوت الملاحظة. طلبت أن تسأل ما إذا كانت هناك أوراق مهمة تحتاج إلى التوقيع.

مازلت الرئيس الذى يسأل، ويناقش، ويهب النصيحة، ويأمر.

تعاملى – بدلاً من الحرس الشخصى– مع البوابين ومنادى السيارات وسائس الجراج وبائع الصحف، من لم أتعامل معهم من قبل، البديل لدور أحمد أنيس فى حياتى، أحرص فلا أتباسط معهم مثلما كنت أفعل مع أحمد أنيس.

طلبت من إجلال -وأذان الفجر يرفع من المسجد القريب - أن ترتدى أجمل ما لديها من ثياب.

قلت فى نبرة تذكيرية:

- هل تذكرين الوزير ماجد إبراهيم؟

- ماله؟

- دعوته على الغداء.

- انقطعت صلتكما منذ ترك الوزارة.

- عرفت أنه سيعود إليها.

وأومأت لتوضيح المعنى:

- لى معه مصالح كثيرة.

كانت قد استغنت عن الخادمة والطباخ:

- نحن أولى بنقودنا.

تنبهت إلى وقع أقدام فوق سطح الفيلا. امتدت يدى - بتلقائية - إلى المسدس فوق الكومودينو المجاور. صوبته ناحية الباب المغلق. درت به ناحية النافذة الموارب.

هل نسيت إغلاقها؟

تنقلت حركتى بين الباب والنافذة. غاب وقع الأقدام، وأرهقنى الانفعال والقلق والتوتر، فنمت.

قمت، لأطلب - وأنا أحاول التثبت مما أرى - استدعاء أحمد أنيس، أملى عليه احتجاجاً إلى الوزير: لماذا يهمل استشارتى فى المشكلات المهمة؟!

لمحت فى عينيها آثار دمع.

- لماذا؟

أدركت أن توجيهاتى تثيرها، هذا ما اعتاده الموظفون فى المؤسسة.

– أخاف عليك من الكوابيس.. لا تكاد تفارقك.

– أنا؟!

– صراخك لا يهدأ حتى أهزك فتنتبه!

قالت – وهى تنهنه – إنى أعانى صعوبة فى تكييف نفسى مع حقيقة الأشياء، ما كان زمنى مضى. حل – بدلاً منه – زمن أحمد أنيس.

لم تكن تعرف كثيراً ظروف عملى، لكنها أدركت أن وضع زوجها لم يعد كما كان. طرأ تغير ما ملموس على عملى الوظيفى، وكانت تتابع ما يحدث بقلة حيلة.

احتوت كفى بين راحتيها:

– ثق أن الله سينصرك.

– لا شأن لله بهذه المعارك السخيفة، هى مقصورة على الشيطان!

وضربت فخذى بأطراف أصابعى:

– لو أنه يمتلك عافية، فلن يتأخر فى تأجير عافيته.

وراحت عيناى فى الفراغ:

– المومسة لا تقتصر على النساء!

أصحو – فى عز الليل – لأن الأرق يمنعنى من النوم، ربما طلبت ورقة وقلماً، أملى عليها رسائل، أو ملاحظات، أو ذكريات، أرى أنها مهمة. ألاحظ أنى نسيتها على موضعها فوق الكومودينو المجاور للسرير.

لاحظت – فى جلستى على رصيف قهوة ريش – شاباً فى حوالى الخامسة والثلاثين، يميل على جاره – فى سن مقاربة – يسر له ما يضحكه، ونظراتهما تتجه ناحيتى.

هل يتحدثان عنى؟ هل يشاركان فى التآمر ضدى؟

استعدت موقفاً مماثلاً بين رجلين فى سن متقدمة، كانا يجلسان لصق

نافذة جروبى المطلة على شارع قصر النيل. توقفت يد أحدهما على يد الآخر، سكتا عن الحديث، واتجها إلى بأعين متسعة، تنطق بشعور المفاجأة.

طلبت الكهربائى أول شارع فريد سميكة. راقبته وهو يضع مكبر الصوت على جدار الشرفة المطلة على شارع عبد الحميد بدوى. صحت، بمجرد انصراف الرجل - فى مكبر الصوت - أنبه الناس إلى أفعال أحمد أنيس:

- أحمد أنيس قتلنى دون نقطة دم واحدة.

أهملت النظرات المشفقة فى عينى إجلال، وما يشبه الصراخ المكتوم على ملامح حازم.

تمنيت لو أن أحمد أنيس رد على كلماتى فى مكبر صوت آخر، سأفضحه، أكشف للناس من هو، كيف التقطه من القاع، ودفعت به إلى حيث هو الآن.

إذا كان قد حاول التناسى، فإن الوقائع يصعب نسيانها، أنا ولى نعمته!

حملق بشفة متدلية:

- هل تتصور أنى أخونك؟

وخبط على كتفه بنفسه:

- لحم أكتافى من خيرك!

يكذب كما يتنفس.

قتل الظاهر بيبرس قائده قطز، فجعله الناس بطلاً شعبياً، ونسى الناس ما لقيه على بك الكبير على يد تابعه محمد أبو الذهب، فبنوا لأبى الذهب جامعاً هائلاً.

هل وصلت نهاية عالمى؟ هل انتهى عالم رضا شهبون؟.

وسائلى إلى الناس كثيرة، أوضح وأشرح وأفضح، هذا هو أحمد أنيس

الذى ائتمنته فخاننى. ثمة الإذاعة والتليفزيون والقنوات الفضائية والصحف والمنشورات التى توزع باليد والملصقات واللافتات المعلقة على مفترق الطرق.

لن أستسلم بسهولة، الحياة معركة، أكسب جولات، وأخسر جولات، المهم أن أنتصر فى النهاية.

المثل يتحدث عن الذى يضحك أخيراً.

- ١٠ -

توقعت - رغبة فى إذلالى - أن تؤخرنى السكرتيرة قبل أن يأذن لى بدخول مكتبه، لكن السكرتيرة عادت من الداخل فى ثوان، وأشارت إلى الباب المفتوح.

عدلت عن فكرة أن يكون حديثى له عبر التليفون. قد تعفينى المكالمة التليفونية من المواجهة.

ضايقتنى الملاحظة:

- لا يوجد أحد لكل العصور!

ونقر بطرف القلم على المكتب:

- أنت تصر على الظهور فى التليفزيون رغم انتهاء الإرسال!

تأملت المعنى فأثارنى.

- أنت تبتزنى!

قال أحمد أنيس:

- من يبتز من؟!

ونقر بقلمه على المكتب:

- أقرأ ما تنشره ضدى!

- ترانى صحفياً؟

أهمل السؤال:

- لا صحف المعارضة ولا المستقلة ستفيدك!

بدا كأن دماءه تصاعدت إلى وجهه:

- كراستى بيضاء.. لكننى أعرف عنك كل شيء!

وداخلت صوته ارتعاشة واضحة:

- الابتزاز يأتى بالاختلاق!

واتسعت عيناه بالغضب:

– أنت لا تملك إسكاتى!

ولوح بإصبعه فى وجهى:

– لكننى آمرك بالسكوت!

توالت اتهاماته بأنى كنت أسخر الآخرين لأهدافى، وأنسب ما يحققونه إلى نفسى. هذا هو التعبير الذى اختاره. ضغط على الكلمات وهو يتحدث عن الأنانية والسطو.

لو أنى كنت أعرف العدوانية فى داخله، كنت أستعد للمواجهة، أدافع عن نفسى. لم يكن فى ملامحه ما يشى بعدوانية ولا تآمر، هو مجرد تابع، يتلقى الأوامر، يشغله تلبيتها.

ما أعرفه من حياته لم يكن هو كل ما فى تلك الحياة. ثمة فجوات وظلال ومناطق منسية لم يتح لى أن أتعرف إليها. الهاجس – الذى ربما لم أدركه جيداً – جعل حدوداً للعلاقة، لا تتخطاها.

لم أسأله عن نفسه، طبيعتى ألا أسأل، ابتلع أحمد أنيس ما فى داخلى من ميل إلى السؤال والحوار والأخذ والرد.

التقطت انفصال أمه عن أبيه، حين استأذن فى زيارة أمه المريضة:

– خذ سيارة من الجراج.

– النقل العام تصل كفر العلو.

وأضفى على صوته رنة حزن:

– الحاجة تقيم هناك.

حدثنى – فى يوم تال – عن زيارته لأبيه فى منوف. أقعد المرض العجوز فلا يقوى على ترك المدينة.

سألت بعفوية:

- أليس لك إخوة؟

- ثلاث بنات.. الكبرى متزوجة.. واثنتان مع الحاجة.

قال إنه يعتز بأنه قد جعل حياته كلها للعمل، لا يذكر أنه قد حصل على إجازة إلا إذا أخضعه المرض، ثم شكا من أن إدارة المؤسسة ترفض أن تحتسب له الشهادة العالية التى حصل عليها أثناء الخدمة.

أهملت التقارير التى ذكرت عمله فى تقسيم الأراضى، وبيعها، وفى الصفقات، والمزايدات، والمناقصات، والعقود، والسندات، والحصص، والأسهم، والشقق، والأراضى، والودائع، والأرقام، وفروق العملة، والسمسرة، والمقاولات، والمضاربة فى البورصة، والتوكيلات التجارية.

صار - بما فى حوزته من معلومات - هو الأقوى، أخشاه، أتوقع تآمره وغدره.

الكلب!.

ألفت نباحه ضد الآخرين، هذه المرة نباحه ضدى، لم يكتف بالنباح، لكنه عضنى أيضاً.

زال الكرسى، فلا أهمية لشيء ,لا توقعات بردود أفعال.

تكررت نصيحته أن أضع مسافة بينى وبين الآخرين. يؤلمنى أنه وضع مسافة النصيحة بينى وبينه، بيت الشعر القديم يتحدث عن الذى تعلم الرماية، وكان رمى معلمه أول ما أقدم عليه.

هل هذه محاولة لقتلى، فلا أصبح أمثل له ذكرى ينبغى محوها؟!

لم أتصور أن ذلك الرجل الذى له مظهر القط الوديع، سيتحول إلى كلب أصابه السعار، هو لا يفرق فى أذية كل من يمرون فى حياته. الستر لم يعد مطلباً فى ذاته، يشغله الفيلا المستقلة، السيارة، الحساب فى البنك ، العز والمكانة الاجتماعية.

عرفت أنه لا يريد الرد على مكالماتى. يقرأ الرقم على لوحة تليفونه، فلا يرد، ألجأ إلى تليفون السكرتارية، أتلقى الإجابة التى كنت أتوقعها: لديه اجتماع، هذا ما كان يوصى به السكرتارية للرد على المكالمات التى تصلنى.

جاء صوته حاداً:

– تعال!

واجهنى بنظرة غاضبة:

– ماذا تريد؟

اختنقت الكلمات في حلقي:

– لماذا وشيت بى ؟

فى لهجة متخابثة:

– هل فعلت ما يستحق الوشاية؟

وهز رأسه فى فهم:

– أوافقك على أن الحياة أخذ وعطاء.

وواجهنى بنظرة متسائلة:

– ماذا تملك لتعطيه؟!

وتقلصت ملامحه بالتأثر:

– لو أنى انشغلت بالالتفات إلى نباح أى كلب، فلن أجد وقتاً لعملى.

استطرد فى تأثره:

– مادام الفعل يقتصر على النباح، فلا بأس!

جاهدت لإظهار تماسكى، والرد عليه بما يستحقه، لكن صوته علا بلهجة مستهزئة:

– طالت قعدتك على الكرسى، صارت له رائحة!

أضاف فى لهجة باترة:

- نحن فى زمن بقاء الأنسب، والأنسب هو الأقوى.
ضغط على الديكتافون:
- سأخرج الآن، أبلغوا السائق.
عرفت أنه ينهى المقابلة.
قال وهو يمد يده بالمصافحة:
- لم تعد بركات الأولياء تكفى للحصول على ما نتمناه!
لاحظت توتر صوته بالعصبية:
- الطريق المستقيمة ليست ?كما يقال - أقصر الطرق، الطرق الحقيقية قد يكون لها منحنيات.
وثبت على شفتيه بسمة استخفاف:
- على البر عوام!
ولوى شفتيه مستهزئاً:
- البحر يشغى بالمخلوقات المفترسة، وأنت لا تحسن السباحة!
وتعمد تجويف صوته:
- أعرف أنى أرتكب أخطاء كثيرة، لكننى أثق فى قدرتى على التصرف!
وسرت فى صوته حشرجة:
- تصر أن تعيش على جهد الآخرين.
وأنا أغالب غضبى:
- لماذا تتكلم بهذه اللهجة؟
وضربت صدرى بقبضتى:
- نسيت أنى رئيسك؟
أطلق ضحكة متكلفة:
- ما أعرفه أنى أنا رئيس الهيئة.

اختنق صوتى بالغضب:

- أنا صنعتك.

واستطردت فى نبرة مهددة:

- وأنا سأدمرك!

كسا القلق جبهته، فتكرمشت.

- إذا عدت إلى الكتابة عن الهيئة، فسألجأ إلى نشر إعلان ينفى صلتك بالهيئة، ويحذر من التعامل معك.

أعرف أن أحمد أنيس نقل إلى زوجته وأولاده كل ما يملكه من عقارات ومحال وأموال مودعة فى البنوك.

تناهى صوته وأنا أغلق ورائى باب المكتب:

- ابحث لنفسك عن حياة أخرى.

تعثرت بالارتباك. سقطت النظارة الشمسية من فوق أنفى، تلفت - بتلقائية - حولى، كأنى أنتظر من يسبقنى فى التقاطها، ويعيدها لى. لم يتحرك الموظفون ولا السعاة المتناثرون فى الصالة الواسعة. انحنيت، فالتقطت النظارة.

نظرت ناحية الباب المغلق، أتصوره يلاحقنى:

- متى تتعلم إنجاز أعمالك بنفسك؟

دسست النظارة فى جيب الجاكتة العلوى، واتجهت ناحية المصعد.

أحمد أنيس حشرة لا تكتفى باللدغ، لكنها تفرغ فى البشرة سمها القاتل.

لكى أتقى أذاه، أفر من حصار مؤامراته، فإن ما يجب على أن أفعله هو أن أبتعد تماماً، أتنحى عن طريقه، لا أتردد عليه، أحذف اسمه من قائمتى الهاتفية، أتناساه حتى أنساه، ذلك ما أتوقع أن يحدث من جانبه، ينتهى الأمر، لكن القوة التى لا أتبينها تسوقنى إليه.

- ١١ -

لم أعرف على وجه التحديد ما يشغلنى، فأسعى لتحقيقه، أليس مما يدعو الزوجة – قد لا تكون إجلال – إلى التساؤل، وربما إلى خيبة الأمل، أن الزوج لا تجاوز نظراته محيطها الجسدى، هو رجل، فلماذا لا يتصرف تصرفات الرجال؟ لماذا لا يتلفت، ويحدق، ويحاول الغواية، ويستجيب لها، ويحتفظ بالأسرار الشخصية، يحاذر أن تعرفها زوجته؟

يؤلمنى انسحاب الرغبة من جسدى قبل الفعل، فى اللحظة التى يكون كل منا قد بلغ ذروة توتره. يحدث الأمر فجأة، دون بواعث من أى نوع، أشد ما يؤلمنى نظرة الإشفاق التى تلوح فى عينيها.

لاحظت ارتخاء ذكورتى عند استيقاظى من النوم. لم أعد أنتصب، فأدركت أن القدرة تعوزنى.

كثر ترددى على شارع الأزهر والشوارع المتفرعة، أبحث عما يفيد الباه، ما أعانيه عارض، وإن توالت الأيام دون أن تسعفنى قدراتى.

أرجعت الأمر إلى تعب أيام العمل . لما أخفقت إجلال فى طمأنتى ، قلت إنها تأثيرات أدوية الحساسية التى وصفها لى الطبيب .

طال الأمر، فساورنى قلق. لاحظت إجلال ميل تصرفاتى إلى العصبية والنرفزة.

أشار الطبيب بدواء مهدئ، وفيتامين فى الصباح، وبالامتناع عن تعاطى المشروبات الباردة والساخنة، عدا ثلاثة أكواب شاى طيلة النهار .

تسللت إلى ذهنى – لا أدرى متى ؟ ولا لماذا ؟ – فكرة العجز الجنسى. أتصور – عقب كل لقاء – أن هذه هى العلاقة الأخيرة – ربما انتابتنى الهواجس، حتى من قبل أن تنشأ العلاقة، أخشى أن تظل على حدود الملامسة التى ما تلبث أن تبوخ.

تغيظنى كراهيتها الزائدة للجنس، ترفض كل ما يتصل به، حتى الكلمات الموحية ترفضها، تبدل الكلام، تديره إلى وجهة أخرى.

جسدها ساكن فى حضنى، لا صوت ولا حركة. أحاول، لا أجد استجابة من أى نوع. لا أستشعر الحرارة، ولا حتى الدفء، فى عناقها.

تظل ساكنة، مستسلمة، لا مبالية، ما أريده أفعله، فلا تبذل من ناحيتها أى شيء، لا تظهر تجاوباً ، ولا تحاول المجاراة ، كأنها – فى رقدتها الساكنة – قد رضخت لما تفرضه الظروف. نهاية استجابتها حين ترفع ذراعيها، لأعرى صدرها، يظل جسدها مستسلماً، وأنا أسحب قميص النوم من ساقيها. أتوقع، أتمنى، استجابتها فى كل ما تصل إليه شفتاى من جسدها، وبتحسس راحتى، لا تفلتان موضعاً. يظل فمها مغلقاً، وعيناها متجهتان إلى الفراغ.

حنان تغمض عينيها، تستغرق فى اللذة. أما هذه المرأة، فهى تسلم جسدها، كأنه لا يخصها. استجابتها متلاشية، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، لا تطرفان، تصيبنى بالارتباك.

آخر ليلة، تلامسنا كزوجين. وانتتنى قوة فى عناقنا لم أعهدها فى الفترة الماضية. حدست أن الشمعة تهب أكبر مساحة ضوء قبل أن يتلاشى الضوء تماماً .

روت لى حنان ما أذهلها: دعاها أحمد أنيس إلى الجلوس على الكرسى المواجه لمكتبه، مكتبى. شاب صوته تذلل وهو يطلب أن تكشف عن فخذيها، اتسع تقلص ملامحها المندهشة، ويده تفك أزرار البنطلون، وتخرج بالانتصاب، تلاحقت يده باللذة المحمومة، حتى تحققت الرجفة. ترافق مد يده إلى علبة المناديل الورقية، بإيماءة رأسه، أن تعيد إسدال الفستان على فخذيها.

أدركت أنى فى حاجة إلى إجلال أشد من أى وقت. ليست مجرد زوجة، لكنها صديقة أبوح لها بما أعانيه، تجيد الإنصات، وتبدى المشورة. ذلك هو الإطار الذى وضعت فيه علاقتنا. تمنيت أن تستمر فيه العلاقة بينى وبينها.

– مضى على زواجنا أعوام طويلة، أخلص فيها كل منا للآخر بما يجعل من الشك مستحيلاً.

قالت دون أن يستوقفها المعنى:

– لم نعد زوجاً وزوجة، نحن أسرة، زوجان وأبناء.

وأنا أتحسس الكلمات:

– هل تجدين فى إخلاصى لعلاقتنا الزوجية شيئاً عادياً؟ ألا ترين أن المرء – حتى لو كان زوجاً صالحاً – يجب أن ينظر إلى النساء، يعجب بمن تستهويه، حتى لو كانت زوجته جميلة الجميلات.

وهى تدفع شعرها خلف رأسها:

– إذا أردت إجابة ترضى ما بنفسك، فلا تسألنى.

أحسست أنها تركت الباب موارباً، كى أنفذ من الانفراجة الضيقة:

– أرفض الخيانة، لكننى أرفض البلادة أيضاً، سئمت المتاح. من حقك – لا أقول من واجبك – أن تحذرى اتجاه نظراتى، ما يلفت انتباهى فى الأخريات، يهمنى أن تتعرفى إلى ما أجدت إخفاءه خلال عشرتنا الطويلة!

تقلصت ملامحها بخيبة أمل:

– هل هذا ما تركه أحمد أنيس فيك؟!

هى تعرف أن أحمد أنيس سلب وقتى، كل وقتى، حتى خارج المؤسسة، بصمته، أو فى مكالمات التليفون.

رفعت حاجبيها:

– وهذه العبارات السخيفة فى كلامكما.

أحمد أنيس احتواني، امتصني. لم تعد لى قدرة على فعل شيء بدونه ، لا أوامر، ولا ملاحظات، ولا أسئلة. كان أحمد أنيس - وحده - يفعل كل شيء، يوجه وينصح ويشير، هو أنا، وأنا هو، هو نحن الاثنان، وقفتى على الهامش لا أجاوزها.

دهمنى إحساس بالمرارة:

- لا شأن لأحمد أنيس بما أفكر فيه أو أفعله.. أحمد أنيس كان مجرد موظف عندى!

فوتت الملاحظة:

- كان أحمد أنيس فى حياتنا.. ورحل.

ورمقتنى بإيماءة مستفهمة:

- لماذا تصر على أن تستدعيه؟!

وبدا الاستياء فى نبرة صوتها:

- أنت تنغص حياتنا بذلك الرجل!

هبطت الفكرة على رأسى فى تقاطع الطريق بين شارعى طلعت حرب وقصر النيل. لماذا لا أنسى أحمد أنيس؟

إذا كنت قد أدخلته حياتى لسبب محدد، فإن السبب لم يعد قائماً. يجب أن أبدل حياتى، كل ما فى حياتى من بشر وارتباطات ومواعيد، يغيب أحمد أنيس تماماً فلا أراه، يخلو البيت إلا منى، تذهب إجلال إلى أمها، فأتأمل ظروفى، وأعيد ترتيبها.

أردت أن أفعل شيئاً، نفعل شيئاً، أكسر رتابة ما يحيط بى من رتابة وملل.

من حق المرء أن يحيا تجارب مثيرة، لا تشغله الملاحظات، ولا الأسئلة، ولا حتى الانتقادات، ما يرى أنه يستحق المغامرة يقدم على فعله.

يلى إغلاق باب حجرة النوم علينا، قيام حائط غير مرئى، يلغى كل ما كنت أعددته. النظرات التى تومئ وسيلة كل منا للتعبير عن حاجته إلى الآخر. وميض عينيها استجابة لما تلتقطه فى نظرتى.

- لا أريد أن أبحث عن واحدة أخرى.

لمحت استجابة فى إيماءة رأسها:

- شجعينى على البقاء فى البيت .

بدت الفكرة - حين قلبتها فى رأسى - مبهجة، ثم باخ - بكلماتها - كل شيء.

أدركت أن ما كان فى قبضتى قد أفلت بعيداً.

أغمضت عينيها كأنها تتأمل الكلمات المناسبة:

- أنت فى حدود الخمسين؟
- لم أبلغ الثامنة والأربعين.
- سن يصبح فيها المرء صديقاً لأبنائه!

فوّت الملاحظة.

بسطت راحتيها فى حيرة:

- لم أعد أحتمل.. أنت تريد ممرضة، لا زوجة.
- هل شكوت لك مرضاً؟
- المصيبة أنك لا تعرف مرضك!

لاحظت أنها لم تعد هى، معاملتها لى تغيرت، وإن لم أدرك دافع هذا التغير. صارت حساسة بما لم تكن عليه من قبل.

هل الأمر يرتبط بإحالتى إلى المعاش؟ هل أتت محاولاتى لكسب ودها بعكس ما أرجوه؟

بدت لى مخلوقاً آخر غير التى أعرفها، فترات الصمت بيننا تطول، لا أجد ما أتكلم فيه، ربما هى أيضاً لا تجد ما تكلم فيه. ضايقنى قولها إنى لم

أتصور حياتى بعد أن يذهب أحمد أنيس. لماذا أتصور؟ أنا أتيت به، جعلته، يجب أن يظل تابعى، خادمى.

حلت الغربة بيننا، غربة مفاجئة، كأنى ألتقيها للمرة الأولى، أو أن أحدنا لا يعرف الآخر، يهمس الصوت، يغلبه الانفعال، تتجه الأعين إلى الناحية المقابلة.

غلفت صوتى بمداهنة:

– لماذا تبدلت مشاعرك؟.. أظن أنك..

هزت يدها مقاطعة:

– الشفقة هى ما أشعر به ناحيتك، زالت الشفقة فلم يبق سوى الكراهية!

لا أدرى متى بدأت المخيلة فى استدعاء حنان، تنبهت إلى ما أعانيه حين انتفضت إجلال من بين ذراعى مستنكرة. كنت قد أدرت التسجيل بصوت حنان، تهمس، تفح، تغنج، بما يثيرنى.

ضغطت على زر الأباجورة، إلى جانب السرير، انتفضت مذعورة، تملصت من حضنى، اتجهت بنظرة مستغربة إلى جهاز التسجيل، فوق الكومودينو.

- أنت مريض!

التسمية قاسية!

لو أنها اتهمتنى بالجنون، فالمعنى يشمل تصرفات، أملتها لحظات المضاجعة. لم ترفض حنان وأظهرت السعادة، حين أدرت التسجيل، لحظة اتجاه كل منا إلى الآخر بمعان دالة.

هى لا تعرف حنان، لا تعرف صوتها، لم أحاول مضايقتها، أردت أن أثير صمتها. يؤلمنى، يغيظنى، صمتها، لا صوت ولا حركة، إلا ما يرافق أدائى، لا أتعمده، مصدره العفوية، تغيب الاستجابة فى ملامح وجهها، ردود فعل على أى نحو. أستدعى العبارات الساخنة، واللهاث، والتأوهات، والصرخات المكتومة.

أيقظت فى نفسى ما لم أكن تنبهت إليه من قبل. فجرت ينابيع صاخبة، موارة. هى فى بالى بقسمات جسدها، وتقاطيعه، وملامح وجهها. أستعيد فى ذاكرتى كل ما التقطته، الإيماءات، حمرة الأظافر فى تراقص أصابعها، وهى تنتر الحذاء من قدميها، إعادة خصلة الشعر المتهدلة، ضغطة الأسنان على الشفة السفلى، تسوية الرموش والحاجبين، تجفيف صدرها بالمنشفة التى أحاطتها بها، كلمتها المغناة تضيف إلى اشتعال النيران: يا شقى.

لا أتصور أنى أحيا دون إجلال، أتمنى العيش مع حنان فى الوقت نفسه، أحتاج إليهما، أتخيل - هذا ما أملكه - أنهما يرافقان نومى. أحتضن إجلال بساعديّ، وأضاجع حنان بالأخيلة المحمومة، والأبخرة التى تكاد تحرقنى. يتطاير الشرر من عناقنا، تشتعل النيران، تتفجر البراكين، تزأر وحوش الغابة، تتعالى الموسيقى الصاخبة.

أقسى ما أعانيه حين أعانق إجلال بذراعين متشبثتين، يداخلنى شعور أن حنان هى التى أعانقها، تنبهت لصوتها وأنا أخترق زحام سوق التوفيقية، تراجعت نظراتى المتلفتة دون أن أجدها، ترامت ضحكتها الصاخبة فى جلستى داخل جروبى، نظرت بتلقائية، بدت الطاولة لصق النافذة المطلة على شارع طلعت حرب خالية، والدنيا ساكنة.

وضعت إجلال العلبة الخضراء على البوفيه:

- قرأت أن هدايا الزوج الكثيرة معناها الخيانة.

أعدت الكلمة مستنكراً:

- الخيانة؟!

لفنى ارتباك ,وأحسست أنى نسيت كل ما كنت قد أعددته من كلمات:

- هداياى خيانة؟!

لم تستجب لمحاولاتى باستمالتها، لم تحاول مجرد النظر ناحيتى.

الصدود هو التصرف الذى تقابل به عناقى.

قمت عنها بملامح غاضبة:

- أنت تمارسين الجنس كوظيفة!

أضفت لدهشتها المتسائلة:

- هذا ما ينطق به جمود وجهك!

ورشقتها بنظرتى الغاضبة:

- أنت الآن كالدواء الذى انتهت صلاحيته!
علاقتنا العاطفية لم تعد تمتعنى، هى مجرد شريك يؤدى ما تطلبه القواعد.
همست من بين أسنانى، أعيب عليها سلبية أدائها فى المضاجعة، هى تتمدد تحتى، تترك لى نفسها، لا تتحرك إلا عندما أحركها، لا تتكلم، ولا تصدر صوتاً من أى نوع. شغلتنى حيل - ينبغى أن تعرفها - لإيقاظ قدرتى الهامدة.
شاهدت فى التليفزيون عمر الحريرى وهو ينزع الجورب من ساق صباح فى فيلم " الرباط المقدس ". أهملت نظرة إجلال المندهشة، لما طلبت منها أن ترتدى جورباً فى ساقيها. قلت إنه يضيف إلى جمال الساقين. لم أناقش - فيما بعد - إهمالها ما طلبته. أستطيع أن أطلب، من حقها أن ترفض. ذكرتها بأن الاتصال الجنسى ليس فى اللقاء المباشر وحده، لكنه فى اللحظات التى تسبقه، واللحظات التى تتلوه.
أزاحت ساعدى بيدها:
- من حنان؟
هل ذكرت -دون أن أفطن - اسم حنان؟
اقتحمنى الارتباك، قلت ما لا أعرفه ولا أفهمه، أعادنى استواء جلستها، ونظرتها الغاضبة، إلى نفسى:
- اسم موظفة فى الهيئة.
نظرت إلى ما لم أتبينه جوارها:
- أريد أن أكون وحدى.
لم أعد أتردد على حجرة نومها، أستلقى على السرير، وفى رفقتى حنان، صورتها كما أعرفها، أخلو لها فى خيالات متداخلة. أحدق فى الجسد العارى، أتأمل القسمات والملامح والتعبيرات، تمتد الخيالات إلى

آفاق لا نهاية لها، تتناثر فى مداها حنان، مبتسمة، جالسة، نائمة، راقصة، تهمس بغنجها المثير، يمس لسانها شفتيها بإيماءة تحريض فى أوضاع، أطلبها، أو تختارها، أستعيد تكوين جسدها بتقاطيعه وتفصيلاته وانبعاجاته وانحناءاته، لا أعرف أين تكمن الإثارة؟

حتى أظافر اليدين والقدمين المطلية بلون الدم تثيرنى فى شرود إغماض العين. يجتاحنى الغنج والفحيح، تتملكنى رغبة كالجنون فى المغامرة، والبحث عن المثير. أحاول كتم الأبخرة المتصاعدة فى داخلى ,أعانى عجزاً عن لململة نفسى المبعثرة.

لفنى شعور بأن إجلال تعجز عن تلبية رغباتى، لا تستجيب لمشاعرى، لا تدرك حقيقة ما أعانيه. أغمض عينى لما أتبين أنى كنت أبحث فى وجه إجلال عن ملامح حنان.

تظل الرغبة فى داخلى وأنا أضاجعها، يأخذنى الشرود إلى حنان، أعانق جسد إجلال، تتحرك السيقان بينما فمى يعتصر شفتى حنان، يسرى عناقها بالمتعة فى خلايا جسدى، أشعر فى احتضانى لها إنها هى التى تحتضننى.

شعرت – فى لحظة لم أتوقعها – أن مضاجعتى لإجلال واجب ثقيل، تذكرت قول الرجل فى مقهى الكورسال: العلاقة الحلال تخلو من اللذة. وقال الرجل عن امرأة لا أعرفها: لها شفتان ممتلئتان تغريان بالالتهام.

من حقى أن أعوض ما فاتنى، أن أشبع رغبتى، وليس مجرد أداء واجب الزوجية.

ما الذى جذبنى فى حنان، فلا أستطيع نسيانها؟

غاب المعنى فى تأملى، واجترارى ما حدث، لكنه استقر فى النشوة التى تستغرقنى تماماً. تأود المشية، تكويرة الردفين، استدارة الكعبين وحمرتهما،

همس الكلمات، وتباطؤها. حتى طريقة نزع الثياب والحذاء تضعنى فوق صهوة الجنون، أهمل كل شيء عدا الرقصات المحمومة.

أخلو إلى نفسى، تؤنسنى حنان بطريقة كلامها، وتصرفاتها، وضحكتها، وتخلل شعرها، ورائحة عطر Joyالذى حرصت عليه منذ استعملته – هدية منى – للمرة الأولى. أصحو، فأجد حنان ممددة إلى جانبى. النظرة السريعة إلى المكان تعيدنى إلى نفسى، وإلى إجلاء التى أحاول تبين ما إذا كانت نائمة بالفعل، أم أنها فطنت إلى المعنى.

قادتنى حنان إلى المتعة بما لم أعرفه فى إجلال، مخيلتى تجتذبها لحظات احتضانى إجلال، أجاوز الصمت السادر، أغرق فى طيات أمواج حنان، فى ليونة جسدها الطرى، أشعر فى عناقها بتغلغل اللذة فى أعصابى وخلاياى، كأن جسدى يتحول إلى كتلة مشتعلة من النيران.

ما يصعب تفسيره قيّد العلاقة بين إجلال وبينى، تلك طبيعة الزواج: زوجان يضمهما بيت إلى نهاية العمر، الحرية المنطلقة علاقتى بحنان، لا نضع محاذير، أو نخشى التفسيرات الخاطئة. المتعة هدف نجرى فى اتجاهه.

داخل الضيق نبرات صوتها:

– هذه تصورات أنيس.. تحاول تنفيذها دون وعى.

أضافت فى ضيقها:

– هو لا يقل شراً عن ياجو.

رنوت إليها بنظرة متوسلة، كأنى أطلب عونها:

– ألا تلاحظين أنى أعيش ظروفاً قاسية؟!

– أنت عاجز عن اتخاذ القرارات.

بقيت صامتاً، خشيت لو تكلمت أن أخطئ.

ضايقنى قولها إنى لم أكن أعرف ما يدور فى الهيئة، سيطر أحمد أنيس على كل شيء، دان له العاملون بالرئاسة الفعلية، وهو الذى يأمر، ويوجه، ويذكى الترقيات والعلاوات، بينما جلستى داخل المكتب لا تتيح لى التعرف إلى ما بخارجه. قالت: كان يخفى عنك ما يحدث، وقالت: أوهمك بولائه وهو يضمر الشر، وقالت: صارحك بنفورى منه فاعتبرت مشاعرى غيرة.. هل أغار عليك من رجل؟!

وهى تهش ذبابة عن وجهها:

– المشكلات لا تنتهى وتكتفى بالحيرة!

وزمت شفتيها المرتجفتين، كأنها تغالب البكاء:

– أليس غريباً أن تحاول إطفاء النيران التى أشعلتها بنفسك؟

حدّست أن مزاجها قد تبدّل.

قالت كلاماً كثيراً، صفات واتهامات، لم أتصور أنها تواجهنى بها: إنى أعتمد على الآخرين، ولا أنجح بمجهودى الخاص، وإنى ضعيف، ولا أستحق الشفقة.

أدركت أن الكلام معها لم يعد مجدياً. لا أطيق من ينسب لى أخطاء، أو يراجعنى فى تصرفاتى.

هل تورطت فى المؤامرة ضدى؟ هل سكتت عن الخطوات الشريرة، حتى طالعتنى النهاية القاسية؟

أردفت فى لهجة آمرة:

– دعنى أتخذ القرارات بما يفيد حازم!

وتهيأت للنهوض:

– سأحميه وأحمى نفسى، وهذا البيت!

وقعت على مئات الفواتير بفساتين وأحذية وقوارير عطر وأحمر شفاه

وطلاء أظافر ومقصات ومبارد وأقلام حواجب وأمشاط.

هل تخشى نفاد مصاريف إزالة التجاعيد بالبوتوكس، وأقنعة تجميل الوجه، والتدليك، والمساج، والكريمات المستوردة، وحقن الكولاجين، وتمارين رفع الفخذ، والانتشاء بالإيروبكس؟

وأنا ألعق جانبى فمى:

- لاحظت تبدلك منذ تركت العمل !

لم أناقش الأمر حين اختارت البقاء فى البيت، بدلاً من العمل فى مركز البحوث الجنائية والاجتماعية:

- لدينا من النقود ما يكفى.. وزيادة.

ووضعت وجهها فى راحتيها:

- أفضل أن أفرغ نفسى للبيت.

اكتفيت بالقول مداعباً:

- لديك حالة تستحق العناية.

تريد أن تظل على حالها فى التردد على الكوافير ودكاكين الأحذية والعطور والأزياء والمجوهرات .

رمقتها بنظرة لائمة:

- تخشين زوال الحياة المرفهة.

- بل أخشى زوال عقلى!

وومضت عيناها بقسوة لم أعهدها:

- تزوجتك وأنت لا تملك دفع إيجار شقة!

قلت إن علينا أن نتخلى عن الإيماءات والتلميحات، نعبر عما نريد التعبير عنه بالفعل، لا نخفى، ولا نهمس، ولا نتوقع.

أطلت من عينيها نظرة باردة:

– على أحدنا أن يترك البيت.

كيف أتخلص من هذه العلاقة التى تذلنى؟

الانفعال الذى قلص ملامحها، وشى بصدق التهديد. أحمد أنيس سجل كل شيء باسمى، ليس من حقها أن تأخذ كرسياً من الصالة. لم يكن ذلك لأنه خادمى – ثبت لى خطأ التصور – وإنما لأنها كانت ترمقه بعينى الاحتقار.

جاهدت لإظهار تماسكى:

– ربما وافقت على ترك البيت، لكننى لا أعد بمواصلة الإنفاق!

– لا أريد شيئاً!

– أنت لا تعملين.. وأعرف أنك لا تملكين ما تنفقين منه.

– سأعود إلى العمل.

– فى الثالثة والأربعين؟!

– هذا شأنى.

تحرص أن تبدو بمظهر الواثقة من نفسها.

– هل ستفتحين مكتباً للاستشارات؟

– المهم أن أعمل، ولو موظفة صغيرة.

وعلا صوتها فبدا كالصراخ:

– لم أعد أتحمل، أريد الطلاق!

– الطلاق؟!

حدقت فى عينيها، أستشف ما إذا كانت صادقة:

– ألم تفكرى فى تأثير ذلك على حازم؟

إذا وافقت على الطلاق، فأنا أعطى الفرصة لأحمد أنيس كى يدمرنى تماماً، يصبح مستقبلى كله ورائى. •

- أعرف أنك تأثرت نتيجة تغير ظروفنا.

ولانت لهجتى:

- لا بأس من الانتظار حتى تعودى إلى نفسك!

قتلتنى نظرتها الساخرة، الشامتة:

- المشكلة فيك أنت!

قلت فى تذلل:

- انصحينى!

- فات أوان النصح!

ورمقتنى بنظرة ساخطة:

- أنت فى آخر الطريق التى اخترتها!

دنوت بوجهى، أبحث عن شفتيها، لكنها أبعدت ذقنى بأطراف أصابعها، وأدارت وجهها إلى الناحية المقابلة.

- أنت تنسين ما يربطنا.

وهى تومئ إلى حازم:

- تقصد الولد؟

وشاب صوتها حدة:

- إن كان هو ما يربطنا.. خذه!

تنبهت للمعنى:

- إذا تركت البيت فسيسبقنى الولد.

حدقت - بلا تعمد - فى انفعالات وجهها، لاحظت خلوه من المساحيق، أو أنها اهتمت بما أخذه العمر.

- إذا تركت البيت فأنت تفقدين كل حقوقك، حتى رعاية حازم ليست من حقك!

أردفت فى نبرة احتجاجية:

- تتكلمين عن شاب لا عن طفل، حازم فى السابعة عشرة، إنه يعرف مصلحته.

- مصلحته فى الابتعاد عن هذا البيت.. هذا الجنون.

- دعيه يقرر!

حركت يديها كمن تستجلب الهواء:

- لا أستطيع أن أتنفس الهواء الذى تتنفسه.

علا صوتها فبدا كالصراخ:

- لا أطيق!

لم يداخلنى قلق حقيقى. كنت أعرف - لثقتى فى طبيعتها - أنها ستتراجع، لن تسير فى الطريق إلى نهايتها.

وأنا أحاول لململة نفسى المبعثرة.

- أنا لا أريد الحرام!

فى صوت ينضح بالعداء:

- هل تقنعنى بأنك لم تعرفه على يد أستاذك؟!

- من؟

- لك أساتذة غير أحمد أنيس؟

- تصفين موظفاً عندى بأنه أستاذى؟!

- هو الآن رئيس المؤسسة.

- لا يملك الكفاءة ولا الندية ما يعطيه هذه الصفة.

حدجتنى بنظرتها الساخطة:

- تصر على العيش فى الوهم!

رددت الكلمتين بينى وبين نفسى، لكننى ظللت صامتاً، أعانى الحيرة

والارتباك، أخشى نتائج لا أعرفها لو أن شفتى انفرجتا عما أكتمه، تبدو النتائج مجهولة، قد أواجه مالا أستطيع تحمله.

زاد نزولى إلى الطريق، لا أقصد مكاناً محدداً، ربما تأملت فاترينات المحال، أو تمشيت على كورنيش النيل. قد أستقل الباص إلى منطقة بعيدة، أظل - عند نهاية الخط - فى مكانى، حتى يبدأ الباص رحلة العودة.

كيف أقنعها بأنى أترك البيت لعلاقات نسائية، ترضينى بما ترفض هى تقديمه لى؟

عندما تفصل أى جهاز عن تياره الكهربى، فإنه يصبح هامداً. هكذا الجسد، إذا لم يتحقق الإيلاج فى مصدر المتعة فإنه يتحول إلى الهمود.

أعرف أنى لا أستطيع أن أغازل النساء. لم أفطن إلى المعنى حينما كان أحمد أنيس يتولى الأمر، يعبر ما لا يشغلنى من مسافات، أكتفى بالوقوف فى خط النهاية، أصحب من يأتى بها، وأمضى.

شعرت أن فى صدرى حملاً من الكلمات ينبغى أن أتخلص منه.

كيف؟ ولمن؟

إذا كانت تتصور أنها ستحرمنى من متعة أتوق لها، فإنه لم يعد يهمنى حتى مجرد النظر إليها، أتنقل فى الشقة كأنى بمفردى، أنزل الطريق دون أن ألتفت ورائى. أمضي من شارع إلى آخر، لا أختار، ولا أعرف الشوارع التى خلّفتها، أو التى أتجه إليها.

ضبطت نفسى أسرع فى خطواتى، فلا تبعد المرأة التى اجتذبتنى ساقاها.

ترددت على البنك قبل أن أمضى إلى موعد فى جروبى. ذكرتنى الوقفة أمام الشباك بإنهاء أحمد أنيس لكل ما أطلبه من الإيداع أو السحب. أغنانى كارت الائتمان عن حمل النقود، لكننى لم أستعمله. كان أحمد أنيس يحصل على شيكات بما ينفق.

الساعات تنقضى فى شوارع القاهرة، دون أن تتحرك السيارات من أمكنتها، الملل يقتلنى فى جلستى.

هدأت حركة السير عند نهاية شارع الأزهر.

انطلقت بالسيارة فى طريق صلاح سالم.

فى طابور السيارات المتجهة إلى الناحية المقابلة، فى المحاذاة تماماً، صرخت السيدة من صدمة السيارة، فتحت السيدة فمها وعينيها، حدست أنها تموت. عاد جاب الله السائق إلى الوراء، ثم جانَب موضعها، وزاد فى سرعته.

استعدت نظرتى، وواصلت السير.

حذرنى أحمد أنيس من العودة إلى موضع سقوط الحمار فى الطريق الزراعى، قرب مدينة مشتول السوق.

قال لجاب الله:

- واصل طريقك!

ولكزه فى كتفه :

- إذا عدنا للاطمئنان أو المواساة، فلن نضمن حياتنا!

عبرت تقاطعات الطريق، كأن السيارة تخترق - بإرادتها - زحام المرور. جاوزت ميدان السيدة عائشة، أطمئن فى أسوار المقابر إلى المكان الذى أقصده. ملت من الشارع المفضى إلى جامع السيدة عائشة. التقاء الحدائق

والأحواش والمقابر المتلاصقة فى الخلاء. لمحت مكاناً للسيارة فى جانب الميدان الصغير. البحث عن مكان خال لوقوف سيارتى يضايقنى. تتلاصق السيارات فى جوانب الشوارع فلا تأذن بركوب سيارة أخرى. لم أكن أعنى بالأمر. يقودها السائق جاب الله، أو أتركها لتصرف أحمد أنيس، يرتب حياتى منذ الاستيقاظ إلى التوجه للنوم.

ثمة لحظات تنفصل عن الزمان والمكان، لا يشغلنى من حولى ولا ما حولى. تحل السكينة، وطراوة اللحظة، أنسى ما يبتعد عن المكان الذى يحتوينى، المناقشات، والمشكلات والمشادات والخلافات والمخاوف والقلق، يداخلنى شعور بالاتصال بينى وبين الناس من حولى، كأن العالم قد اختصر فى هذا المكان، فى هذه اللحظة، فى هؤلاء المحيطين بى، أعرفهم، أو أنهم غرباء.

كان الرجلان يتهامسان أمام مكتبة الشروق بميدان طلعت حرب، وينظران ناحيتى، وابتسامة غامضة تعلو شفاههما.

شعرت أن الرجل فى ركن " كنتاكى" ميدان التحرير يرمقنى بنظرة مقتحمة. حولت عينى بعيداً، هؤلاء الناس يحيكون لى فى الخفاء ما يجعل حياتى مستحيلة.

انتترت – فزعاً – بالصيحة التى أعقبت اصطدامى بالجسد المندفع:

حى!

وشى ارتداؤه الخيش بما دفعنى إلى الالتصاق بالنافذة الزجاجية. ظللت أتابعه حتى غيبه زحام الميدان.

اخترقت الشوارع إلى مقام السيدة زينب، اتجهت – دون تلفت – إلى المقصورة الهائلة، يمتزج ضوء النجفة – من فوقها – بالضوء الصادر من النافذة المطلة على الميدان.

قرأت سوراً قصيرة، وأدعية، واتتنى بها الذاكرة، حاولت أن أجد ما أخاطب به صاحبة المقام، فأعوزتنى الكلمات، طالت الوقفة دون أن أنطق كلمة واحدة، عانيت اختلاط الأدعية والنداءات والاحتكاكات واللكزات. نبهنى رفع الأذان إلى موعد الصلاة، تخطيت الصفوف التى قدم ناسها لصلاة الظهر، اخترقت زحام المصلين والزائرين، سرت – فيما يشبه الهرولة – إلى موضع السيارة.

أريد من ينفذ الأوامر، يحفظ أسرارى الشخصية وأسرار عملى. يلجم لسانه فلا ينطق بغير كلمات الطاعة، لا يسأل ما يشى بالفضول. يعرف متى يظهر فى حياتى الشخصية، ومتى يختفى. أنا صاحب الكلمة، أصدر الأمر فينفذه.

لو أنى احتفظت بما فى نفسى. الجانب الخفى فى داخل الإنسان أشبه بالخزينة المغلقة، لا يفتحها إلا هو، لا يظهر ما بها لأحد، حتى لناسه، طبيعة المرء ميله إلى البوح والفضفضة، خزينة أسراره الشخصية يجب أن تظل مغلقة. هذه الأسرار التى لا يعرفها سوانا.. قد تكون سبباً لتوثق صداقتنا لأنفسنا.

تملكتنى رغبة فى أن أعيد تصويب ما أراه خطأ. أزمعت ألا أبوح بما فى داخلى، هو رصيد أعود إليه فى أوقات الوحدة، أراجع نفسى، وما أعانيه. أتظاهر بالتعالى، وإن داخلنى شعور مؤلم بالوحدة. أرفض مشاعر العجز والمهانة والخوف، ما صنعه فى حياتى غدر أحمد أنيس، وتسخيف إجلال، وإذلال حنان.

تملكتنى الحيرة: لا أعرف كيف أواجه المواقف؟ هل أصنع جداراً غير مرئى من العرف الاجتماعى، باتساع المسافة بينى وبين الآخرين؟ هل أضع ملامح جادة ؟ هل أرسم ابتسامة مرحبة؟ هل أتحدث فى العمل، أو أجاوزها إلى العلاقة الإنسانية؟

يلفنى شعور بالوحدة، وأنى أحتاج إلى من يكلمنى، يؤنسنى، يأخذ منى

ويعطى، أبوح له بما يشغلنى، ومخاوفى.

أتلفت، لا أجد حولى أحداً ممن كانوا يستأذنون السكرتارية قبل أن أوافق على استقبالهم، يعيدون ذكر الأسماء والأرقام فى " الأنسر "، حتى أرفع سماعة التليفون: آلو.

أغالب الشعور بأنى أفتقد أحمد أنيس، هو الشخص الذى أطمئن إليه فى هذا العالم، أبثه ما بداخلى، وأطلب ما أريده. ينصح، ويوجه، ويشير بما أفعله، أو يفعله هو بدلاً منى.

غاب أحمد أنيس عن حياتى. تلاشت القوة والسلطة والملاحظات والتنبيهات والأوامر والتعليمات والتوجيهات وإصدار القرارات والتوقيع على الأوراق، كأنى ضال فى خلاء لا ينتهى.

لم أعد أذهب إلى النوم فى موعد محدد. أتمدد على السرير. أقرأ حتى يسقط الكتاب من يدىّ، وأروح فى النوم. قرأت لكاتب أمريكى - لا أذكر اسمه - عن استغلال الوقت الضائع - هكذا سماه - فى القراءة التى تقدم الفائدة والتسلية. أجول فى الشوارع بصورة لم أعهدها فى نفسى، أسير كما لم أسر من قبل. مدفوعاً بالحاجة إلى المشى.

لو أن حياتى عادت إلى ما كانت عليه، قبل أن يدخلها أحمد أنيس، هل كانت أحوالى ستتغير عما هى عليه الآن؟ هل أندم على ما فات، أو أعيد ترتيب المواقف؟

تصاعد الإحساس فى داخلى. متى ؟ كيف؟ أنه لم يعد بإمكانى العيش بدون أحمد أنيس، هو يعلم أكثر مما أعلم، يعرف كل شيء، وأنا لا أعرف إلا ما أذن لى أن أعرفه، كأن صوته يأمرنى أن أفعل ما يريد، ما يحلو له، وأن التلبية هى ما أملكه، أنفذه دون أسئلة ولا اعتراض. لا أتصور أنه يمكن لى أن أفكر وأتكلم وأسأل وأتخذ القرارات، دون أن ألجأ إلى أحمد أنيس، يكون جانبى، ينبهنى للمزالق والأخطار. يتولى القيام بكل ما قد أعجز عن أدائه. ربما فعل ما ينبغى أن أفعله.

أكثرت من التلفت، بحثاً عن الشخص الذى يحل محل أحمد أنيس. غابت الوظيفة، لكن حياتى لم تغب، هى قائمة ومستمرة. إذا وجدت من يعيننى، فإن الأمل يظل فى الأفق، أعمل بما يروقنى، بما أتوقع أن أحقق فيه شيئاً. تغيظنى الحياة على الهامش. لن أظل قعيد البيت، أقرأ الصحف، أشاهد التليفزيون، أطل من الشرفة. هذا الملل، ألجأ إلى من تفيدنى نصائحه وملاحظاته، يؤدى ما لا أريد أن أؤديه، أهبه ثقة مطلقة، وإن أزمعت ألا أكرر الخطأ فأترك له نفسى، يعرف عن أحوالى ما لا ينبغى أن يعرفه، لا يمثل تهديداً، ولا يتطلع إلى ما يصعب الحصول عليه. تصبح لى أسرارى التى لا أبوح بها لأحد، أخفيها حتى عن نفسى.

تمنيت لو أن كل شيء، كل شيء، عاد إلى ما كان عليه فى الماضى.

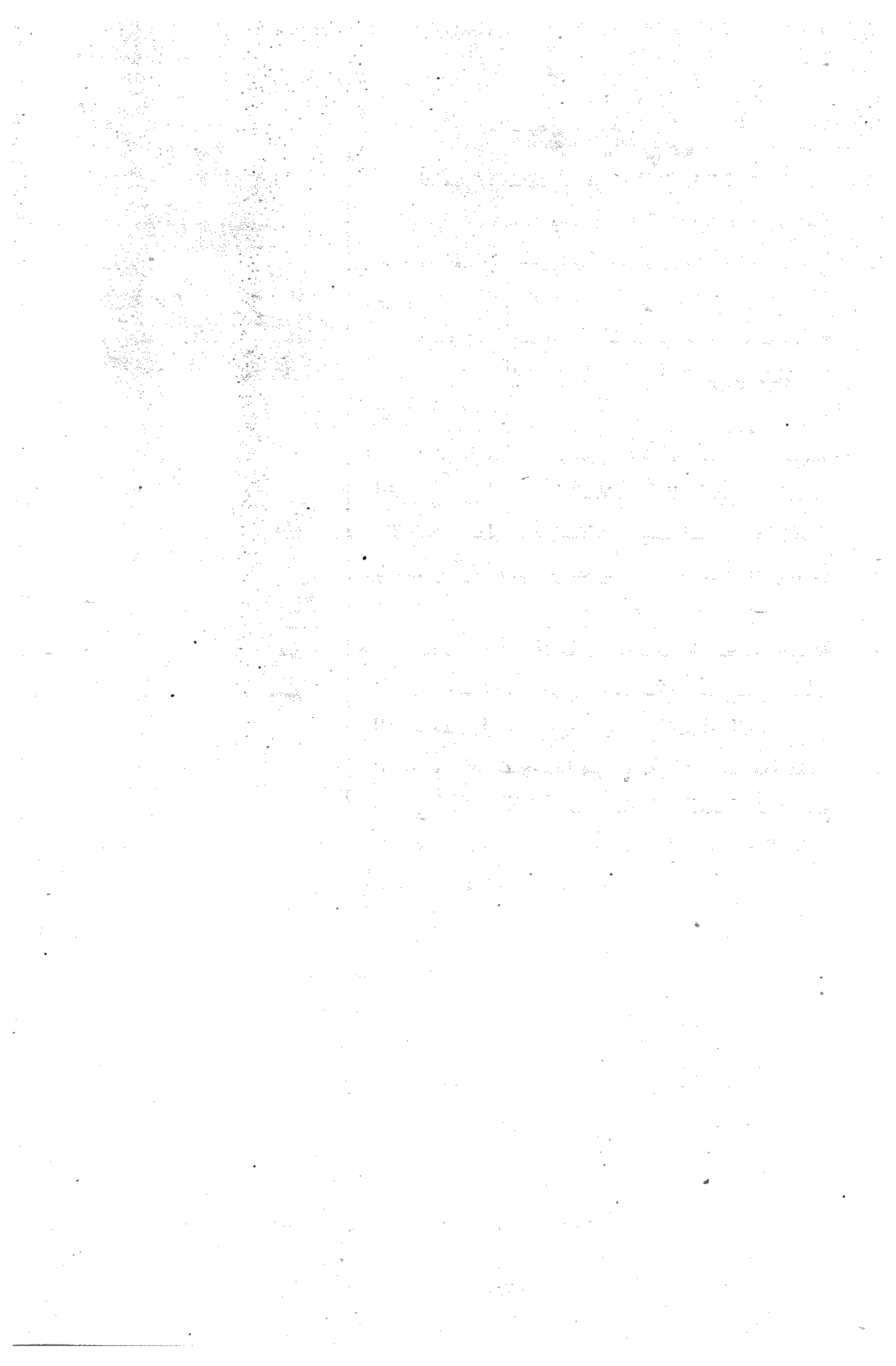
لم أعد قادراً على استعادة ما مضى، ولا قادراً على تبين حياة جديدة ينبغى أن أعيشها. تأخر كل شيء، لم يعد إصلاح الأمور ممكناً. حتى إجلال لا أصدق حكاياتها، لا أتوقع من أحد شيئاً، إجلال جدار كنت أستند إليه، لم يعد موجوداً. أينا المخطئ، تلك ليست القضية، القضية غياب إجلال عن البيت، عن حياتى.

أتوقع شيئاً لا أعرف ملامحه، ولا أخمنها، يظهر فى لحظة ما غير متوقعة، لكننى أثق فى ذلك التوقع.

يؤلمنى الشعور بالوحدة، لا أحد يحتاج لى، أحمد أنيس صديقى الوحيد. لما ابتعد، صرت بلا أصدقاء.

أشعر أنى كائن بائس، وحيد.

أحمد أنيس: إنى أفتقدك.





المؤلف في سطور

محمد جبريل

ولد فى الإسكندرية فى ١٩٣٨/٢/١٧.

عمل بالصحافة منذ ١٩٦٠م بدأ محرراً فى القسم الأدبى بجريدة الجمهورية ثم انتقل إلى جريدة «المساء». عمل فى الفترة من يناير ١٩٦٧م إلى يوليو ١٩٦٨م مديراً لتحرير مجلة «الإصلاح الاجتماعى» الشهرية، وكانت تعنى بالقضايا الثقافية.

عمل من ١٩٧٤م إلى ١٩٧٦م- خبيراً بالمركز العربى للدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والتعمير وتولى مع زملائه تدريب الكوادر والإعداد لإصدار أول عدد من جريدة «الشعب» الموريتانية ١٩٧٦م .

«عضو اتحاد الكتاب المصريين»، عضو جمعية الأدباء، «عضو نادى القصة»، «عضو نقابة الصحفيين المصريين»، «عضو اتحاد الصحفيين العرب»، ظل عضواً فى لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة لمدة ثمانى سنوات. انضم هذا العام إلى عضوية لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة.

حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب عام ١٩٧٥م عن كتابه «مصر فى قصص كتابها المعاصرين».

نال وسام العلوم والفنون والآداب من الطبقة الأولى عام ١٩٧٦م، تم تكريمه من مجلة «ديوان العرب» الإليكترونية فى ٢٠٠٦م مع عدد من مثقفى